خطاب الرفيق خروشيف

في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي

(ستالين في رأى خلفائه)

قدم له الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد - القاهرة

قدم للخطاب الكاتب الكبير
الأستاذ عباس محمود العقاد

ستالين فى رأى خلفائه

خطاب خروشيف

[الخطاب الذى ألقاه سكرتير الحزب الأول فى مؤتمره العشرين]

ترجمه [illegible]

ماهر نسيم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين [illegible])

مقدمة

ستالين فى رأى خلفائه

لما ألقى الرفيق « خروشيشيف » — فى مؤتمر الحزب الشيوعى — خطابه عن سياسة ستالين تسربت شذرات منه إلى العالم الخارجى وأذاعتها الصحف بين التصديق والتكذيب ، وكان الرأى الغالب أنها نقل محرف إن لم تكن حديثاً مسموعاً من مصدر غير وثيق ، فاشتد اهتمام الصحف باستقصاء الحقيقة ومضت أيام قبل التحقق من صحة الخطاب وقبل الحصول على نصه الكامل من المصادر الأجنبية ثم من المصادر الروسية ، وكان حكم الناس على هذا الخطاب بعد التيقن من صحته وصحة مصدره أنه وثيقة لا نظير لها فيما أذيع حتى الآن من وثائق القرن العشرين .

ومهما يكن من نقص فى الاطلاع على حوادث العالم فلا تحسب أن أحداً يعزو هذا الاهتمام بالوثيقة إلى صدورها من زعيم معدود فى دولة كبيرة ، فإننا فى عصر كثرت فيه خطب الزعماء المعدودين فى جميع الأمم وفى شتى الموضوعات ، ولا تحسب أن أحداً يعزوه إلى غرابة الفظائع التى رويت فى الخطاب عن ستالين . فإن الناس قد ألفوا من هذه الفظائع

كل غريب غير مألوف فى العالم أو فى بلاد الروس : ألفوا منها أن يكون ضحايا ستالين من أقطاب الحزب الشيوعى أكثر عدداً من ضحايا هذا الحزب وضحايا دعاة الثورة على اختلاف مذاهبهم فى عهود القياصرة مجتمعين ، و بعد هذه الغرابة لا محل لا ستغراب شىء من « الرفيق » الذى يصير الرفقاء على يديه إلى هذا المصير .

أما فظائع العصور الغابرة فما من فظيعة فيها تبلغ من الغرابة شيئاً من غرابة الفظائع التى اقترفها ستالين فى العصر الحديث . فقد كانت فظائعهم فيما مضى ديدنا لا يستغرب وشريعة يتبادلها من يصيب ومن يصاب ، وقد أصبح تكرار هذه الفظائع خبراً مفروغاً منه — لا يستطيع — الرفيق خروشنف أن يطالعهم منه بجديد .

لقد علم النـاس أن « نيرون » فظيع ، ولكنهم علموا أنه مجنون يحاسب بحساب المجانين .

وقد علموا أن « أتيلا » فظيع ، ولكنهم علموا أنه يسوم أعداءه ما يسومونه لو وقع فى أيديهم ، فهو فظيع لا يوصف بالغرابة فى زمانه على الأقل ، ولم يبلغ عدد صرعاه مع ذلك معشار الملايين الذين ذاقوا الموت والسجن والتعذيب على أيدى « الرفيق » الذى تكلم عنـه رفيقه خروشيشيف وسبقه فى الكلام عنه من شرحوا هذه الغرائب أو زادوا عليها فأصبحت فى حكم المألوفات

كلا . لم يوصف خطاب خروشيشيف بأنه وثيقة القرن العشرين لأنه طالع الناس بغريبة من غرائب ستالين . . .

ولا وصف بذلك لأنه صدر من زعيم معدود فى دولة كبيرة ، ولكنّ صدوره من « خروشيشيف » مع هذا كان سبباً من أسباب هذه الصفة وهذا الاهتمام وهذا الاستغراب الذى شكك الناس زمناً فى صدق الخبر وفى إمكان صدور الخطاب من قائله المنسوب إليه .

لو كان خروشيشيف خليفة لستالين وحسب لما استغرب الناس مقاله عن سلفه و إن أقذع فيه غاية الإقذاع ، لأن الخلفاء الذين يتهمون أسلافهم غير قليلين فى التاريخ الحديث ولا فى التاريخ القديم .

ولو كان وريثاً لعرش القياصرة كالملوك الذين يرثون العروش عن آبائهم لجاز أن يسمع الناس منه أنه سيعدل حيث ظلم أبوه وأنه لن يصنع كيت وكيت مما ينكره الناس على الحاكمين من قبله .

ولكن « خروشيشيف » خليفة ستالين لأنه تلميذ من تلاميذه ، وعون من أعوانه ، ويد من أيديه فى أعمال حزبه وأعمال حكومته ، وشريك له فى مذهب يقوم كله على فكرة واحدة : وهى بطلان النظم التى تتغير فيها السياسة بتغير الأشخاص .

هذا هو موضع الدهشة من حملة خروشيشيف على أستاذه ورئيسه بعد انقضاء سنوات ثلاث على وفاته .

وهم لم يدهشهم من الحملة أن « خروشنيشيف » يدين نفسه ، أو يتعرض لاتهامه فى وفائه لأستاذه ورئيسه . فإن الكلمة هنا ليست بكلمة « خروشيسيف » وحده فى الدولة الروسية ، ولو كانت كلمته وحده لما استطاع أن يقولها ولما كانت به من حاجة إلى قولها وتسجيلها على نفسه مع بقائه فى مكانه وعمله . إنما تكلم خروشيشيف هنا بلسانه ولسان زملائه وشركائه فى خلافة ستالين ، وليس موضع النظر فى موقفه أنه قصة وفاء يحافظ عليه هذا ولا يحافظ عليه ذاك . إذ هم جميعاً سواء فى اتهام ستالين وفى الاعتراف على أنفسهم بطاعته مجبرين غير مقتدرين على مقاومته ولا على مواجهته بخلاف فى الرأى من أكبر الأمور إلى أصغر الأمور .

كيف استطاع ستالين أن يستبد هذا الاستبداد فى مجتمع زالت منه رؤوس الأموال ؟

كيف استطاع أن يجمع فى يديه سلطاناً لم يستطعه قيصر ولا شاهنشاه ولا حاكم بأمره من طغاة القرون الأولى .

أبالدهاء «الشخصى» يستطاع هذا فى بلد زالت منه رؤوس الأموال ؟

أبالنفوذ السياسى يستطاع هذا فى ظل مذهب يقال فيه إن النفوذ السياسى كله تبع للمنافع الاقتصادية ؟ وان السياسة وحدها لا توصّل إلى شىء من النفوذ حيث يكون رأس المال أو حيث لا يكون ؟

وإذا كانت المنافع الاقتصادية تتيح لفرد واحد أن يستبد هذا الاستبداد على الرغم من أنوف الأقطاب والأنداد فى بلاده فماذا تبلغ العيوب التى تثيرنا من رأس المال إلى جانب هذا الشر المستطير الذى يهون عنده كل ما فى رأس المال من الشرور ؟

* * *

لقد استطاع ستالين أن يستبد بالرأى وأن يضرب بأقوال القواد والسفراء والخبراء عرض الحائط فى خطب من أعظم الخطوب التى تهدد سلامة بلاده وهو خطب الغزوة الألمانية ، لأنه اعتقد أن الأخبار التى تصل إليه من الخارج عن قرب الشروع فى هذه الغزوة ملفقة لاستدراجه إلى الحرب ، ولم يكلف نفسه عناء المراجعة لتصحيح هذا الاعتقاد اكتفاء بتقديره أو تخمينه الذى لا يخيب فى ظنه ، وأصر على تكذيب النذر المتوالية بابتداء الغزوة إلى ما بعد ابتدائها واقتحام الجيوش الألمانية للحدود الروسية .

وقد استطاع فى الشئون الداخلية أن يستبد فيها استبداداً أشد من هذا الاستبداد ، لأنه قتل نحو سبعين فى المائة من أعضاء لجنة الحزب المركزية التى يتولى باسمها مركزه فى الحزب وفى الحكومة .

ومن كلام خروشيشيف عن عناد ستالين فى أمر الغزوة الألمانية بعد

سرد النذر التى توالت عليه من الخارج والداخل قوله فى خطابه كما جاء فى ترجمته العربية : « وكتب كوربونوس الذى كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية — وقد قتل فيما بعد أثناء وجوده بالجبهة — إلى ستالين يقول إن الجيوش الألمانية وصلت إلى نهر باج وأنها تتهيأ لشن الهجوم وأنه من المحتمل أن تقوم بهذا الهجوم فى القريب العاجل ، وقد اقترح كيربونوس فى هذا المقام تنظيم دفاع قوى . . . . ولكن موسكو أجابت على هذه الاقتراحات بأن تنفيذها يعتبر استفزازاً وأنه ينبغى عدم الإقدام على اتخاذ أية استعدادات دفاعية على الحدود ، حتى لا نتيح للألمان فرصة التذرع بأى سبب للقيام بعمل عسكرى ضدنا . . . »

إلى أن قال : « وعند ما غزت جيوش الفاشية الأراضى السوفيتية فعلا و بدأت العمليات الحربية أصدرت موسكو أمراً بعدم الرد على النيران الألمانية . . . . وفى عشية غزو الجيش الهتلرى للاتحاد السوفيتى عبر مواطن ألمانى حدودنا وأبلغنا أن الجيوش الألمانية تلقت أمراً بالبدء فى الهجوم على الاتحاد السوفيتى فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٢ يونيو وأبلغ ذلك إلى ستالين فوراً ولكنه تجاهل أيضاً هذا التحذير » .

أما طغيانه فى الشئون الداخلية ففى الخطاب كلام مسهب عنه يطلع عليه القارىء فى مكانه من الترجمة ، وخلاصته كما جاء فى الخطاب « أنه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر

ثمانية وتسعون اعتقلوا وأعدموا رمياً بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨ على الخصوص . . . . ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ولكنه كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا في المؤتمر السابع عشر . فمن ١٩٦٦ مندوباً كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ألقى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة . . . »

* * *

مثل هذا الاستبداد بالشئون التى تتعلق بها سلامة الأمة وسلامة الأرواح فيها — لم ينفرد به قط أحد فى زماننا هذا ولا فى الأزمنة التى كانت تسمى بعصور الظلمات . وقد ذكرنا الطاغية « أتيلا » فيجب ن نذكر أنه كان على استبداده المطلق لا يستغنى عن الموافقة والتأييد من رؤساء العشائر وخبراء الحروب ، وغاية ما يقال عن الطبقة الحاكمة فى المجتمعات التى يسميها الشيوعيون بمجتمعات رأس المال أن القابضين على أزمة الثروة الاقتصادية فيها سيستطيعون إشعال الحروب وإخمادها باحتيال الحيل من وراء الستار وتدبير المؤامرات ونشر الدعاية والاستيلاء على أقلام الكتاب وألسنة الخطباء وأصوات الانتخاب ، ولا ينفرد واحد منهم بهذه القدرة دون الشركاء الذين يعدون بالمئات ، وقد يعدون بالألوف .

فأما أن يكون فرد واحد قادراً على البت فى شئون الحرب والسلم والعدو على الأبواب ، وأن يتحكم فى ذلك بتقديره أو بتخمينه الذى تنحنى له رؤوس القواد والقادة والسفراء والخبراء ، فذلك ما لم يحدث قط فى ظل نظام من نظم الحكم المفرد أو حكم المئات والألوف المتآمرين .

وكذلك إهدار الأرواح بمشيئة فرد واحد على هذا المثال . فإنه يعز على الحاكم المطلق فى كل زمن فلا يجترىء على إهدار الأرواح سنة بعد سنة بهذه السهولة وبهذه الكثرة وهو آمن على نفسه مغبة هذا الاجتراء . وأى اجتراء ؟ وأى أرواح ؟ . . اجتراء من لا يقتصد فى شهوات بأسه وبطشه ، وأرواح النخبة التى يحق لها أن تلوذ ببعض الحصانة المهيبة لأنها تنوب عن الأمة وباسمها يقضى من يقضى ويتولى الأمر من يتولاه .

فكيف تم لستالين فى مجتمع زالت منه رؤوس الأموال أن يستبد هذا الاستبداد بمن يشاء كما يشاء ، وكيف طال به عهد هذا الاستبداد فلم ينزع عنه حتى مات ؟

قيل أنه تحول بالزعامة من سنة أستاذه « لنين » فخرج بها من زعامة جماعية إلى زعامة فردية ، فهل يكفى أن يريد فرد بين مائة وخمسين مليوناً أن يستبد بهم ليتم له ما يشاء ؟ أليس فى النظام مناعة تقاوم إرادة فرد واحد يناقضه كل مؤمن بذلك النظام ؟

ليس المهم أن الاستبداد حصل لأن ستالين حول الزعامة الجماعية إلى زعامة فردية ، ولكن المهم أن نعلم كيف استطاع أن يحوله فتحول ؟ وكيف فقد النظام كل إرادة له أمام إرادة فرد واحد يعتدى عليه ؟ وما هى الوصمة التى يصمون بها مجتمعات رأس المال إذا كان نظام الشيوعية لا يعصم نفسه من فرد واحد يدبر لنفسه وسائل هذه السطوة المنكرة فيتم له كل ما أراد من تدبير ؟

على أن القوم يتجاهلون الواقع حين يقولون إن الاستبداد طارىء غريب على مذهبهم يخالف ما شرعه لهم لنين بعد قيام الثورة الشيوعية . فإن هذا الطارىء الغريب على زعمهم عنصر أصيل فى مذهب لنين قبل تلميذه ستالين ، وأن لنين لهو القائل بصريح العبارة : « إن ديمقراطية الاشتراكية السوفيتية لا تناقض بحال من الأحوال نظام الفرد الواحد الذى يتولى الإدارة والدكتاتورية ، فإن إرادة الطبقة تنفذ أحياناً على يد الحاكم المطلق الذى يكون أكثر لزوماً حين يعمل منفرداً . . . » . . . ولا تزال هذه الفلسفة مقررة فى مجموعة لنين ، ولا سيا الصفحة ال (٤٤٤) من المجلد الثلاثين .

* * *

ولسائل أن يسأل : هل زالت هذه الفلسفة بعد زوال ستالين بثلاث سنوات ؟

إن الذين استمعوا إلى خطاب الرفيق خروشيشيف قد تقبلوه جميعاً وأقروه بغير استثناء ، وأنهم كانوا على صمتهم عن فضائح ستالين سنوات ثلاثاً حتى شاء الرفيق خروشيشيف أن يعلن تلك الفضائح فى مؤتمر الحزب العشرين . فلماذا صمتوا جميعاً طوال تلك السنوات الثلاث ؟ ولماذا لم ينكشف هذا السر لأحد قبل الرفيق صاحب الخطاب ؟ لماذا لم يكن من المئات الذين سمعوه أخيراً من عرفه أولاً كما عرفه الرفيق الذى واجه به المؤتمر ؟ هل هو سر واحد أو سر اثنين أو سر ألف أو سر مليون وهو بهذا الاستفاضة فى الموضع والموضوع ؟ وماذا نفهم من الموافقة على اتهام ستالين بلا استثناء ؟ هل نفهم أنهم كانوا جميعاً يجهلون سياسة ستالين حتى كشفها لهم — خليفته فثبت عندهم مقاله فى جلسة واحدة ثبوت اليقين ؟ هل نفهم أنهم كانوا يعرفونها ولزموا الصمت عنها فلم يجترئوا على ذكرها حتى سمعوها ؟ هل نفهم أن الألوف من أعضاء المؤتمر لم يكن فيهم مائة أو عشرون أو عشرة يقرون سياسة ستالين أو يلتمسون له فيها المعاذير ؟ هل نفهم أن مؤيدى ستالين قد صمتوا اليوم كما صمت مخالفوه أيام الزعامة الفردية ؟

أيا كان المفهوم من موقفهم بالأمس واليوم فهو موقف لا يدل على فارق كبير بين الجهر والكتمان ، أو بين إنكار المنكرين ورضوان المرتضين .

* * *

إن اعترافات خروشيشيف قد وصفت بأنها وثيقة القرن العشرين لأنها أصابت المذهب الماركسى فى أساسه لا لأنها أصابت ستالين فى سمعة لم يبق فيها ما يصاب .

ولا شك أن الضربة التى أصابت سلاح المذهب فى الدعاية لنفسه والحملة على خصومه لا تقل عن هذه الضربة التى أصابته فى أساسه بل فى حجة وجوده ، وهى القضاء على النفوذ المختلس أو المغتصب الذى يعاب على مجتمعات رؤوس الأموال .

لأن سلاح المذهب فى الدعاية لنفسه والحملة على خصومه يتلخص فى احتكار الإخلاص للجماهير والصراحة فى مكاشفتها بالواقع واتهام كل دعوة أخرى كائنة ما كانت بالغش والكذب وخداع الشعب وتضليل العامة وإخفاء الحقائق عنها والتمويه عليها بالعقائد الكاذبة والأوهام الممزوقة ، لإرضائها عما لا يستحق الرضى ومن لا يستحقه من الزعماء والرؤساء .

ومنذ ثلاثين سنة ، بل منذ قيام المذهب فى عهد كارل ماركس — ترتفع العقائر من قبل هؤلاء القوم بالافتراء على كرام الناس وأمنائهم واستباحة أعراضهم وقذفهم بكل رذيلة من رذائل الخيانة والدنس وما إليها من ألوان السباب التى لا مسوغ لها إلا أنها أخس ما وجدوه على ألسنة الناس من المثالب والأدناس .

فإذا رجعنا إلى بطون التواريخ فأين نجد فيها تضليلا للشعوب و إخفاء للحقائق يستبيح فى أسوأ الحكومات ما استباحه هؤلاء « المخلصون الصادقون » فى تمجيد الرجل — بل تأليه الرجل الذى علموا من بواطن أمره أنه مجرم سفاح ومدلس كذاب ؟

من من سماسرة الزور فى أسوأ عهود الطغيان قد ارتفع بممدوحيه إلى حيث رفع القوم معبودهم و هم لا يؤمنون بمعبود ؟

كانوا يقولون عنه أنه « فخر العالم ونوره وضميره » .

كانوا يقولون عنه « أنه المحبوب من بين بنى الإنسان كافة.... »

كانوا يلقبونه « بالأب الرحيم والمعلم الحكيم » .

كان من ألقابه عندهم أنه مشعل النور لهداية النوع الإنسانى كله ، وأنه خالق السعادة والنعمة ، وأنه صاحب القلب الرؤوف وصاحب العقل القدير والنسر المحلق فوق سماوات النسور » .

وكانوا يسجلون الخطب فى عشر من « الاسطوانات » آخرها اسطوانة لا يسمع منها غير دوى الهتاف والتهليل .

وكانوا يرفعون له التماثيل الضخام منها تمثال واحد على قناة الفولجا والدون يبلغ وزنه خمساً وثلاثين طناً من النحاس .

وكانت تسمى باسمه المدن فى حياته : « ستالنجراد ، وستالنباد ،

وستالنير ، وستالينسى ، وستالنـكا ، وستالينو جورسك ، وستالنسكو يا ، ويكررون التسمية أحياناً مرتين .

وترنموا بالثناء على عبقريته الحربية فقالوا أنها أعظم العبقريات التى تمخضت عنها جميع العصور » .

ومات فقالوا فى نعيه « إن أعظم القلوب الإنسانية قد نبض نبضته الأخيرة فلا حراك له بعد اليوم » .

إنهم لم يصمتوا صمت الجبن وصمت الحياء ، ولم يتـكلموا فيعتدلوا بعض اعتدال المحرج المضطر أو اعتدال المقتصد المشفق من حساب التاريخ .

بل تـكلموا فتسابقوا فى التضليل والتمويه والخنوع أيهم يهبط فيها إلى الحضيض الذى هو دون كل حضيض .

وهؤلاء هم الذين يذكرون محاسنهم ومساوىء خصومهم فلا يقتصدون فى ادعاء الإخلاص كل الإخلاص لأنفسهم وافتراء البطلان كل البطلان على الخصوم .

* * *

يقول شاعرنا العربى :

وما حسنٌ أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

وقد عذر أتباع ستالين أنفسهم بما حسن لديهم وحسن لدى أمثالهم

وهو — لدى سائر الناس — من الأعذار التى تشبه الذنوب ، أو هى أقبح من الذنوب . ولـكنهم كيف كان عذرهم فهو عذر يحتاجون إليـه لأنهم لا يستطيعون أن ينـكروا أنهم أذنبوا وكل ما يستطيعونه أن يقولوا أنهم أذنبوا مضطرين .

ذلك عذر المضطرين إلى الاعتذار كيفما كانوا وكيفما كان . فما بال قوم لهجوا بمثل ذلك البهتان ولم يخضعوا قط فى بلادهم لذلك الطغيان ؟ ما بال قوم فى البلاد الأجنبية التى لا تخضع لإرهاب ستالين قد أطنبوا فى تقديسه والإشادة بحكمه كما أشاد به المعتذرون بالإرهاب خوفاً على الجلود أو خوفاً على الرقاب .

ما بال هداة الشعوب فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا وما وراء روسيا على الإجمال قد ذهبوا يضللونها ويخدعونها على وتيرة أولئك المضطرين إلى التضليل والخداع ؟

ليس الجهل بالعذر المقبول من أناس يتصدون لقيادة الشعوب ويضطلعون بهدايتها فى ظلمات الجهـالة وحمايتها من تغرير الـكذبة والمتهزين ، ومن كان يجهل حالة تتمثل فى مئات الملايين من الخلق وعشرات الملايين من الفراسخ وتمضى عليها خمس وعشرون سنة على نهج واحد فهو آخر من يحق له التصدى للقيادة ، وآخر من يحق له أن يتهم

أحداً بالتضليل و إخفاء الحقائق ، وآخر من يحق له أن يتولى تصحيح الأخطاء والكشف عن بواطن الدعاوى والدعايات .

إن هؤلاء « المتطوعين » الخارجيين قد نجوا من يد ستالين ولكنهم لم ينجوا من المأزق الذى ألقاهم فيه خلفاؤه . فلا هم فى الجانب السليم إذا قبلوا اتهام ستالين ولا هم فى الجانب السليم إذا رفضوه ، وكلا الأمرين يحرجهم أمام أتباعهم و يعنتهم فى طلب التفسير والتبرير ، ولو كان هؤلاء الدعاة « المتطوعون » يستحقون الرثاء من إنسان لاستحقوا الرثاء وهم يلتوون ذات اليسار وذات اليمين فى المأزق الذى سيقوا إليه بين الفضائح والاعترافات ، ونعنى بذات اليسار وذات اليمين هنا تعبيرها الحرفى الذى لا مجاز فيه ، لأنهم يحارون فعلا بين أهل اليسار وأهل اليمين من دعاة السياسة والاجتماع .

سئل الزعيم الشيوعى الإيطالى « توجلياتى » عن تلك الاعترافات وعن خضوعة الذليل للرجل الذى تدينه فاضطرب بين الاعتذار بالجهل و بين إلقاء اللوم على المعترفين و بين إزجاء الثناء لأولئك المعترفين فى عبارة واحدة .

و يجب أن نعلم أن عذر الجهل من الأعذار التى لا تقبل من « توجلياتى » بصفة خاصة ، لأنه كان منفياً من إيطاليا حوالى عشرين سنة

إلى نهاية الحرب العالمية الثانية قضى معظمها فى البلاد الروسية ، ولأنه زار روسيا لحضور المؤتمر الخامس قبل نيف وثلاثين سنة ، فهو خليق أن يعلم من أحوال ستالين ما يعلمه المقيمون معه بضع سنوات .

وتقرأ أجوبته على الأسئلة الموجهة إليه فلا تستطيع أن ترسم له فى ذهنك صورة غير صورة المضروب الذى يتلوى ذات اليمين وذات الشمال !

فالذى قاله خلفاء ستالين لابد أن يكون صحيحاً فى جملته ، ولكن لماذا يا ترى لم يعلنوه فى حينه ؟ ألا يلامون على الكتمان أو على قلة الاعتدال فى الثناء ؟ بلى ! إنهم ملومون . . كلا . . إنهم غير ملومين .

فهم ملومون لتغيير الحقيقة ، وهم غير ملومين لأنهم بإعلانهم هذه الحقيقة الآن يتهمون أنفسهم كما يتهمون ستالين .

ومرة أخرى : هل يلامون أو لا يلامون ؟.. لك أن تعذرهم وتعفيهم من اللوم لأنهم صدقوا ولو بعد حين ، ولك أن تلومهم ولا تعفيهم من المؤاخذة لأنهم بالغوا فى كشف المساوىء وكان خليقاً بهم أن يكشفوها بشىء من التؤدة والأناة مقرونة بالحسنات التى تشفع لصاحبها فيما اقترف من سيئات لاشك فيها . وكبرى تلك الحسنات أنه أقام الصناعة الكبرى فى بلاد كادت أن تخلو من الصناعات .

وهذه « الملتويات » التى تكررت فى كل جواب إنما تصور لنا الرجفة فى صورة خاطفة ولا تعطينا تلك الصورة الوافية التى تتمثل فى عشرين نهراً من صحيفة « نوفى أرجومنتى Nuovi Argomentia التى تحدث إليها أو كتب فيها ، ولم نطلع نحن على غير الخلاصة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية ، وفيها من دلائل التخبط ما يكاد يغنى عن البيان الأصيل .

وعلى خلاف توجلياتى كان زميله نينى Nenni زعيم الجناح الأيسر من الاشتراكيين — الإيطاليين — صريحاً بعض الصراحة فى انتقاد السياسة الروسية منذ نيف وعشرين سنة ، مرتاباً فى صلاح المجتمع الروسى لاقتداء الاشتراكيين به فى أنحاء العالم ، ما لم يتبدل بالنظام الذى يسوده نظاماً « ديمقراطياً » يسمح بحرية الرأى والمجاهرة بانتقاد ولاة الأمور .

أما الشعبة الفرنسية من الشيوعيين فالعجيب أنها اعتمدت على الترجمة الإنجليزية لخطاب الرفيق خروشيشيف ولم ترجع إلى النص الرسمى منقولا من الروسية إلى الفرنسية ، وقالت مع ذلك فى صحيفة الهيومانتى Humaniti أن الخطاب باللغة الإنجليزية أضاف إلى الأخطاء الجسام التى عرفت عن ستالين طائفة أخرى من أمثال تلك الأخطاء الجسام ، ولكنها عادت بعد اللف والدوران تقول أن ستالين على الرغم من هذه الأخطاء

جميعاً قد كان له دور « إيجابى » فى التاريخ ، وأن الحزب الفرنسى يأسف للأسلوب الذى اختاره خلفاء ستالين لتقرير تلك الحقائق التى جهلها الحزب زمناً طويلا لأنها ليست مما يساعد على البحث الطبيعى بين أعضائه . . !

وينبغى أن نذكر هنا أيضاً أن ما يقال عن توجلياتى يقال عن الزعيم الشيوعى توريز Thorez الذى هاجر إلى روسيا خلال الحرب العالمية وعاش حيث عاش زملاؤه الروس المطالبون اليوم بعلم ما لم يعلمه فى ذلك الجوار « الصريح الأمين ! » .

واضطرب أتباع الحزب الإنجليز كما اضطرب زملاؤهم الفرنسيون والإيطاليون . فالنموذج الروسى عندهم لا يزال على امتيازة بالقدوة الأولى بين تجارب الشيوعية ، ولكنه يحتاج إلى الإصلاح على سنن الحرية الديمقراطية ، وترى الديلى وركر Daily Worker أن الصراحة فى انتقاد السياسة السوفيتية واجبة على جميع المخلصين للمبادىء الماركسية .

وينادى بمثل هذا الرأى هوارد فاست Howard Fast الشيوعى الأمريكى حامل جائزة ستالين . . . فإنه يأسف لأنه سمع بعد إذاعة الاعترافات بتنفيذ حكم الإعدام فى ثلاثة من المعارضين بدلا من اتباع الاعترافات بإعلان « الضمان العام » لحرية الآراء .

وقد كانت التعليقات على خطاب خروشيشيف فى بلاد الشمال ذبذبة عنيفة بين إنكار المساوىء والجرائم والشفاعة لها بما بناه ستالين من صروح العمارة والصناعة التى عاونه عليها خلفاؤه الواجدون عليه .

* * *

هذه أمثلة من المعاذير التى لاذ بها أولئك الدعاة الخارجون الذين قضوا ربع قرن يتعبدون فيه لستالين ويجترئون على ناقديه فيتهمونهم بالخداع وإخفاء الحقائق عن جمهرة الشعب الساذج البرىء !

كلهم يعتذر بالجهل ولم يكن يجهل ولا يقبل منه أن يجهل ، وكلهم يعتصم بشفاعة الصناعة والعمارة لتبرئة المذهب وتبرئة ستالين . . .

ولا ندرى ماذا يقول هؤلاء الدعاة إذا اتهموا النازية والفاشية والاستعمار العسكرى فسمعوا عنها دفاعاً كهذا الدفاع ؟ ماذا يقولون إذا قيل لهم أن هتلر وموسولينى ورجال الاستعمار اليابانى قد أقاموا لبلادهم عمارة كتلك العمارة وصناعة كتلك الصناعة فى زمن أقل وبثمن من الضحايا دون الثمن الذى بذله ستالين من أرواح ضحاياه وحرية رعاياه ؟

بل ماذا يقولون إذا قيل لهم أن الصناعة الكبرى بحذافيرها إنما قامت فى نشأتها ابتداءاً وابتكاراً من فعل رؤس الأموال ولم تقم يومئذ على سبيل التقليد والمحاكاة ؟

لا جواب لأحد على هذه الاسئلة إلا أن الذى صنعه ستالين لم يكن مزية تحتاج إلى مذهب خاص أو فلسفة خاصة ، ولكنه عمل يتساوى فيه النازيون والفاشيون والمستعمرون وأصحاب رؤس الأموال وكل من أراد أن يصنع مثل صنيعه بغير حاجة إلى هذه الفلسفة التى تنقض فى وطن من الأوطان كل فلسفة قائمة فى سواه . وأهون ما بين النقيضين من تلك الفلسفات تناقض الشيوعية ورأس المال .

* * *

ومن البديه أن الضربة التى أصابت المذهب فى أساسه وفى سلاح دعايته لابد أن يتبعها رد فعل من المقاومة والمكابرة ولا يتبعها بأية حال أن يتخلى القوم عن مذهبهم المتصدع ودعايتهم المفلوله . فانهم يقومون على هذا الأساس الذى تصدع يتماسكون بتماسكه و يسقطون بسقوطه . ولعل المقاومة أو المكابرة فى أمر الدعاية أيسر عليهم فى الدفاع عن المذهب أمام ناقديه أو من يؤمنون به على غير اقتناع عجزا منهم عن استيعاب الحقيقة . فان لجاجة الدعاية فى كل زمن أهون على أصحابها من تثبيت المذاهب وتدعيم أركانها وأسسها بالبرهان والبينة ، وما زال من دأب القوم أن يتجهوا بدعايتهم إلى أناس لايؤخذون بالإقناع كما يؤخذون بالخداع وأثارة الغرائز والأوهام ، ومنهم من لا يزال يسمع إلى اليوم أن الكتاب

والمفكرين الذى هجروا بلادهم الروسية فرارا من المظالم على عهد ستالين هم الكذبة المدعون وأن اجراء الذل والتلفيق هم المخلصون الصادقون ، وأنه لغير بعيد أن يسمعوا هـذا الخزى زمنا ولا يشعروا لهم بكرامة عقلية تأنف من الأصغاء إليه .

على أن الحقائق لا تفعل فعلها بأذن من يصاب بها ، ولو أمكن أخفاؤها كل الاخفاء لما ظهرت هـذه الوثيقة باللسان الروسى قبل كل لسان وهو ذلك اللسان الذى تلجلج نيفا وعشرين سنة بالأطناب فى الثناء على القداسة التى يقال اليوم أنها رجس واختلاق .

لم يظهر من هذه الوثيقة حتى اليوم غير شذرات مقتضبة من أنباء البرق إلى الصحف العربيـة ، ثم وصلت إلى مصر نصوصها الكاملة فى الصحف الأجنبية أطول مما تستطيع الصحف عندنا أن ننشره وأهم من أن يهمل أو يترك مكانه خاليا فى اللغـة العربيـة . ويسرنا أن تكون ترجمته الوافية فى الصفحات التالية منقولة بقلم أديب صحيح الترجمة تندر فى عبارته أخطاء المترجمين إلى لغـة الضاد من اللغات الأجنبية ، ويزود قراء لغتنا بمرجع قريب يعتمدون عليه فى الألمـام بشؤن العـالم ووثائقه التاريخية ؟ .

عباس محمود العقاد

خطاب خروشيف

نص الخطاب الذى ألقاه خروشيشيف السكرتير العام للحزب الشيوعى للاتحـاد السوفييتى فى المؤتمر العشرين الذى عقده الحزب . وقد استغرق الخطاب جلستين كاملتين يومى ٢٤ و ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٦

أيها الرفاق :

علمتم من تقرير اللجنة المركزية للحزب فى مؤتمره العشرين ، ومن الخطب العديدة التى ألقاها المندوبون فى المؤتمر ، ومن الجلسات التحضيرية التى عقدتها اللجنة المركزية ، ومن جلسات الحزب . . . علمتم من هذا كله الشيء الـكثير عن تقديس الفرد ومدى ما يترتب عليــه من نتائج ضارة .

فقد عمدت اللجنة المركزية للحزب بعد موت ستالين إلى انتهاج سياسة تبين فيها بشـكل دقيق حاسم أنه من الأمور الدخيلة على مبادىء ماركس ولينين أن يُرفع فرد واحد إلى مرتبة الإنسان الـكامل ، أو أن تنسب إليه صفات قدسية لا تسمح هذه المبادىء بإضفائها على أى فرد . . فمثل هذا الفرد يُنسب إليه عادة أنه عليم بكل شيء ، وقادر على إدراك كل شيء ، ومستوعبٌ من الخبرات ما يجعله قادراً على أن يفـكر نيابة عن الجميع ، وأن يفعل كل شيء دون زلل أو خطأ يعتور مسلـكه . ومع ذلك ، فإن الاعتقاد بوجود مثل هذا الفرد ، وأعنى بذلك ستالين

على وجه الخصوص ، ساد لمدة سنوات طويلة ، ورُوّج له بيننا حتى يرسخ في نفوسنا .

غير أن الغرض من هذا التقرير ليس تقييم حياة ستالين وضروب نشاطه ، فإن كثيراً من الكتب والكتيبات والدراسات قد كرّست لهذا الغرض خلال حياته . كما أن الدور الذى لعبه ستالين فى التحضير للثورة الاشتراكية وتنفيذها ، وفى الحرب الأهليه ، وفى الكفاح من أجل بناء المجتمع الإشتراكى ، كل ذلك معروف على نطاق عالمى . فكل شخص يعرف هذا الأمر على خير وجه .

ولكننا الآن معنيون بمسألة تهم الحزب فى حاضره ومستقبله . . . مسألة تتعلق بما نجم عن تقديس شخصية ستالين ، ذلك التقديس الذى أصبح فى مرحلة معينة من مراحل حياتنا مصدراً لسلسلة كاملة من الهدم لمبادىء الحزب وديمقراطيته وشرعيته الثورية .

بيد أن كثيرين لا يدركون حتى الآن بصفة كاملة النتائج العملية التى تترتب على تقديس الفرد ، ومدى ما يلحقه تنكب مبادىء القيادة الجماعية للحزب من خطر جسيم يتمثل فى تركيز سلطات هائلة لا حد لها فى يد شخص واحد . لذلك ترى اللجنة المركزية للحزب ، أنه بات لزاماً عليها أن تجعل المادة والمعلومات التى تكشف عن هذا المنحى فى متناول أيدى الرفاق المشتركين فى المؤتمر العشرين للحزب .

ودعونى قبل كل شىء ، أعيد إلى ذاكرتكم ، كيف أن مبادىء ماركس ولينين استنكرت كل مظهر من مظاهر تقديس الفرد إستنكاراً شديداً . فقد قال ماركس فى خطاب بعث به إلى ويلهلم بلوس القائد العمالى الألمانى « إننى أنفر من جميع مظاهر تقديس الفرد نفوراً جعلنى أستنكف الترويج لأى مظهر من مظاهر التقديس الذى خلعه علىّ البعض فى خطبهم العديدة التى ألقيت فى عدة دول طيلة عهد (الدولية الأولى) ؛ فقد ضايقنى هذا التقديس كثيراً رغم ما فيه من تأييد للمبادىء التى أنادى بها . كما أننى لم أحاول قط أن أرد على أمثال هؤلاء إلاّ فى مجال التقريع لهم . فعندما اشتركتُ وإنجلز للمرة الأولى فى مجتمع الشيوعيين السرى ، اشترطنا إلغاء كل مظهر من مظاهر التقديس الزائف للسلطة والفرد . ولكن (لاسال) عمد إلى نقيض ما طالبناه به » .

كذلك كتب « إنجلز » بعد ذلك يقول : « كنت وماركس معارضين دائماً للترويج العلنى للأفراد ، اللهم إلاّ فى حالات إستثنائية ذات غرض عظيم . ولقد كنا نستنكر بكل قوة مثل هذا الترويج لشخصينا أثناء حياتنا » .

كما أن تواضع « فلاديمير اليش لينين » عبقرى الثورة ، أمر معروف للجميع . فقد كان لينين يؤمن إيماناً قوياً بدور الشعب كخالق للتاريخ ، وبالدور التوجيهى والتنظيمى للحزب كأداة خالقةٍ حيةٍ ، كما كان يؤمن

بالدور الذى تلعبه اللجنة المركزية للحزب . ومع ذلك ، فإن الماركسية لا تنكر الدور الذى يلعبه قادة الطبقة البروليتارية فى توجيه حركة التحرير الثورية .

ولكن لينين كان ، فى الوقت الذى يعلّق فيه أهمية بالغة على الدور الهام الذى يلعبه قادة الكتل الشعبية ومنظموها ؛ يستنكر بغير هوادة شتى مظاهر تقديس الفرد ، كما كان يستنكر بكل قواه الآراء الدخيلة على المبادىء الماركسية التى تضع بعض الفوارق بين « الزعيم » و« الجمهور » ؛ ذلك أنه كان يقف فى وجه أية محاولة تهدف إلى وضع أى فارق بين « الزعيم » والشعب .

كذلك كان لينين يقول فى تعاليمه أن قوة الحزب تعتمد على وحدته التى لا تنفصم مع الشعب عمالاً وفلاحين ومثقفين . فهو القائل « لن يتسنى الفوز والاحتفاظ بالسلطة إلاّ لمن يؤمن بالشعب ، ويصهر نفسه فى بوتقة قوة الشعب الخالقة الحيّة » . كذلك كان لينين كلما تحدث عن الحزب ، يقول بفخر أن الحزب هو قائد الشعب ومعلمه . كما كان يطالب دائماً بأن تطرح جميع الأسئلة الهامة على بساط البحث أمام الطبقة العاملة المتنورة ، وفى مواجهة حزبهم . وهو فى ذلك يقول « إننا نؤمن بذلك المنهج ، ونرى فيه عين الحكمة والشرف ، كما نتمثل فيه ضمير هذا العصر . »

وكان لينين يقف بعزم و إصرار ضد شتى المحاولات التى تهدف إلى التهوين من شأن الدور الموجّه الذى يقوم به الحزب فى حقل بناء النظام السوفييتى ؛ أو إضعاف ذلك الدور . كذلك كان ينفّذ المبادىء البلشفيه التى تنظم قيادة الحزب والإجراءات التى تكفل سلامة كيانه ، مؤكداً أن المبدأ الأساسى الموجه فى قيادة الحزب هو جماعية هذه القيادة وقيامها على أساس من الزمالة . وحتى فى السنوات السابقة على الثورة ، كان لينين يطلق على اللجنة المركزية للحزب اسم القيادة الجماعية الساهرة على مبادىء الحزب والمفسرة له . وفى ذلك قال لينين : « إن اللجنة المركزية للحزب تقوم فى الأوقات المحصورة بين فترات انعقاد المؤتمر العام ، بالسهر على مبادىء الحزب وتفسيرها » .

كذلك قال لينين فى مجال شرح سلطة اللجنة المركزية والدور الذى تلعبه : « . . . لقد أقامت اللجنة المركزية من نفسها جماعة ذات مركزية متآلفة وذات مسئولية بالغة » .

وفى خلال حياة لينين ، كانت اللجنة المركزية للحزب تعبّر تعبيراً حقيقياً عن القيادة الجماعية للحزب .

وبالإضافة إلى الجهود الجليلة التى قام بها « لينين » لنصرة الطبقة العاملة والفلاحين ، ولنصرة حزبنا ، ولتطبيق الآراء الشيوعية تطبيقاً

علمياً على شتى مناحى الحياة . . . بالإضافة إلى هذه الجهود ، استطاع « لينين » أن يكتشف فى شخصية ستالين فى الوقت المناسب تلك العيوب والخصائص السلبية التى أدت فيما بعد إلى نتائج خطيرة . وإذ كان لينين يخشى ما عسى أن يصيب الحزب والنظام السوفييتى ، فقد حلّل شخصية ستالين تحليلاً دقيقاً ، وأشار إلى أنه من الضرورى بحث مسألة إبعاده عن سكرتارية اللجنة المركزية بسبب وقاحته البالغة وافتقاره إلى حسن التصرف حيال رفاقه ، وإساءته البالغة لاستخدام سلطته .

ففى ديسمبر عام ١٩٢٢ ، قال لينين فى خطاب بعث به إلى مؤتمر الحزب : « بعد أن احتل الرفيق ستالين مركز السكرتير العام للحزب ، جمع فى يديه سلطة غير محدودة . ولست متأكداً هل كان فى مكنته دائماً أن يستخدم هذه السلطة بالدقة والعناية اللتين ينبغى أن تتوافرا له » .

وقد وُزّع هذا الخطاب — وهو وثيقة سياسية ذات أهمية قصوى فى تاريخ الحزب الشيوعى أُعتبرت بمثابة وصية — على المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر العشرين . ولا شك أنكم قد قرأتموها ، وأنكم سوف تقرأونها مرات ومرات . ولعلكم سوف تنفعلون لكلمات لينين الواضحة التى تُعبّر بجلاء عما كان يساوره من قلق على مستقبل الحزب والشعب والنظام السوفييتى والمنحى الذى كان محتملا أن تنتهجه سياسة الحزب فى المستقبل .

ولقد قال لينين أيضاً فى ذلك الخطاب : « ... إن ستالين وقح جداً ، ولئن كان هذا العيب أمراً يمكن التسامح فيه بين صفوفنا نحن أعضاء الحزب الشيوعى ، فإنه عيب لا يمكن أن يكون موضعاً للتسامح بالنسبة لرجل يشغل منصب السكرتير العام للحزب . ولهذا ، فإننى أقترح على جميع الرفاق أن يبحثوا مسألة إبعاد ستالين عن هذا المنصب و إحلال شخص آخر محله ، على أن يكون هذا الشخص — أولاً وقبل كل شىء — مختلفاً عن ستالين بميزة واحدة هى أن يكون أكثر تسامحاً ، وأكثر إخلاصاً ، وأكثر عطفاً مع الرفاق ، وأقل حدة فى الطباع . . . » .

ولقد علم الرفاق الذين اشتركوا فى المؤتمر الثالث عشر للحزب أمر هذه الوثيقة التى كتبها لينين ، إذ وُزعت عليهم أثناء اجتماع ذلك المؤتمر الذى بحث مسألة إبعاد ستالين عن منصب السكرتير العام للحزب . ولكن أولئك الرفاق قرروا حينذاك الإبقاء على ستالين فى ذلك المنصب ، لأنهم كانوا يأملون أن يعتبر بانتقاد لينين له ، وأن يحاول التغلب على مظاهر الإعوجاج فى شخصيته التى حدت بالرفيق لينين أن يقلق من جرائها على مصير الحزب .

أيها الرفاق . . .

إن الحزب يرى لزاماً عليه أن يحيطكم علماً بوثيقتين جديدتين

تؤكدان اعوجاج شخصية ستالين على النحو الذى أوضحه لينين فى وصيته .. وهاتان الوثيقتان هما أولاً خطاب من ناديزا كونستانتينوفنا كروبسكايا زوجة لينين إلى الرفيق كامينيف الذى كان رئيساً للمكتب السياسى (البوليتبيرو) حينذاك ؛ وثانياً خطاب شخصى من لينين إلى ستالين .

والآن استمعوا إلى هاتين الوثيقتين : —

قالت زوجة لينين : —

« ترتب على الخطاب المقتضب الذى أملاه علىّ فلاديمير اليتش لينين بعد أن استأذن الأطباء فى ذلك ، أن سمح ستالين لنفسه بالأمس أن ينفجر فىّ بغلظة وقحة . وليس هذا يومى الأول فى الحزب . كما أننى خلال الثلاثين عاماً التى قضت لم أسمع من أى رفيق كلمة تنم عن قحة . وليست رسالة الحزب وجهود لينين عزيزة على ستالين أكثر مما هى عزيزة علىّ . وعدا ذلك ، فإننى فى مسيس الحاجة فى أيامنا هذه إلى راحة الأعصاب والسيطرة على النفس . . . وإننى لأعرف أكثر مما يعرف أى طبيب ما ينبغى أن يُناقش مع لينين ، وما ينبغى ألا يُناقش معه ، ذلك أننى أعرف المؤثرات التى تثير أعصابه أو لا تثيرها . ولا شك إننى أعرف كل ذلك خيراً مما يعرفه ستالين على أية حال . . . لذلك فإننى ألجأ إليك و إلى جريجورى (زينوفييف) طالبة إليكما باعتباركما من أكثر الرفاق

التصاقاً بلينين ، أن تحمياني من تدخل ستالين الوقح فى شئونى الخاصة ، ومن تجسساته وتهديداته لى... ولست أشك فىطبيعة القرار الإجماعى الذى سوف تتخذه فى هذا الصدد لجنة المراقبة التى يستخدمها ستالين فىتهديدى. ومع ذلك ، فإننى لا أملك من القوة أو من الوقت ما أبدده عبثاً فى عراك أحمق . إننى إمرأة متقدمة فى السن ، وأعصابى متوترة غاية التوتر ... »

كتبت زوجه لينين هذا الخطاب فى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢٢ . وبعد ذلك بشهرين ونصف شهر بعث لينين فى مارس ١٩٢٣ بالخطاب التالى إلى ستالين :

قال لينين :

عزيزى الرفيق ستالين ! ... لقد سمحت لنفسك أن تتحدث فى قحة الى زوجتى عن طريق التليفون . ولقد أغلظت فى القول . وعلى الرغم من أن زوجتى قد اتفقت معك على نسيان ماحدث ، فان زينوفييف وكامينيف قد وقفا منها على ماحدث . ولست راغباً فى ان أغتفر لك بسهولة ماحدث وما بدر منك ضدى . ولست فى حاجة إلى أن أقول لك إننى اعتبر كل إساءة موجهة الى زوجتى إساءة موجهة الى شخصى . ولهذا أود أن أعرف منك هل ستعتذر لزوجتى أو ستفضل أن تظل العلاقة بيننا على ما هى من جفاوة وغلظة .

تحريراً فى ٥ مارس ١٩٢٣ المخلص : لينين

أيها الرفاق :

لن أعاق على هاتين الوثيقتين ، لأنهما تتحدثان ببلاغة عن مضمونهما. وإذا كان ستالين قد سمح لنفسه (أثناء حياة لينين) بأن يعامل زوجة لينين ، وهى من يعرفها الحزب خير معرفة وهى التى تحظى بمزيد من التقدير باعتبارها شريكة لينين ، وهى كافحت بنشاط من أجل قضية الحزب منذ نشأته ... أقول، إذا كان ستالين قد سمح لنفسه بأن يعامل زوجة لينين بمثل هذه الغلظة ، فنى وسعكم أن تتصوروا بسهولة المنوال الذى كان ستالين يعامل به الآخرين . وأصارحكم بأن هذه الصفات السلبية فى شخصية ستالين قد نمت وتطورت على مر الأيام ، حتى لقد أصبحت فى السنوات الأخيرة عنواناً لشخصية لا تطاق ولا يمكن احتمالها .

ولقد برهنت الأحداث الأخيرة على أن مخاوف لينين كان لها مايبررها : فنى الفترة الاولى بعد موت لينين ، حاول ستالين أن يعى نصيحة لينين له ، ولكنه عمد فيما بعد إلى الاستخفاف بنصيحة لينين ووصيته ضارباً بهما عرض الحائط .

وإذا ما حللنا خبرات ستالين فى حقل قيادة الحزب والدولة ؛ وإذا تمهلنا قليلاً فى دراسة كل التحرشات التى قام بها ستالين ، فسوف يتضح لنا أن مخاوف لينين كان لها مايبررها . فالجوانب السلبية فى شخصية ستالين

التى كانت محدودة النطاق أثناء حياة لينين ، قد أصبحت فى السنوات الأخيرة طاغية ، حتى لقد تحولت إلى استغلال سيء للسلطة من جانب ستالين ، الأمر الذى ألحق بالحزب أضراراً لا حدّ لها .

و إنه لمن الواجب أن نبحث بعناية ، وأن نحلل بصدق ودقة هذا الأمر ، عسانا نستطيع بذلك أن نحول دون وقوع مثل تلك الأحداث التى وقعت أثناء حياة ستالين ، ذلك الرجل الذى لم يعمد قط إلى تقدير روح الزمالة سواء فيما يتعلق بالقيادة أو العمل ، والذى عمد إلى العنف والفظاظة لا ضد كل مَنْ عارضه فحسب ، ولكن ضد كل من كان يُخيل إليه قياساً على شخصيته المستبدة الظالمة . أنه يتعارض مع آرائه الخاصة .

هذا ، إلى أن ستالين لم يكن يعمد قط إلى الأخذ بسياسة الشرح والتفسير والإقناع والتعاون الصابر مع الشعب ؛ و إنما كان يفرض مفهوماته على الآخرين و يطالبهم أن يخضعوا خضوعاً شاملاً لرأيه . والويل لمن كان يعارضه . فكل مَنْ حاول معارضة مفهوماته أو التقدم برأى جديد يتعارض مع رأى ستالين ، أو يصحّح موقفه ، كان مصيره الطرد من صفوف القيادة الجماعية والتعرض للإذلال الأدبى والمادى . ولقد تمثل ذلك كله بوضوح على وجه الخصوص فى الفترة التالية لإنعقاد المؤتمر السابع عشر للحزب . فإن كثيراً من قادة الحزب البارزين والأعضاء العاملين المخلصين

الذين كرسوا حياتهم لنصرة الشيوعية ، قد سقطوا فى تلك الفترة ضحايا لاضطهاد ستالين وطغيانه .

ولست فى حاجة إلى أن أقول إنه لم يحدث خلال المعركة الفكرية العنيفة التى شنها الحزب على أنصار تروتسكى وزينوفييف وبوخارين وغيرهم ، أن اتخذت إجراءات قامعة متطرفة ضدهم . . . ذلك لأن تلك المعركة كانت مستندة إلى أساس فكرى . ولكن حدث بعد ذلك ببضع سنوات ، عندما وُضع البناء الأساسى للاشتراكية فى بلادنا ، وعندما تلاشت الطبقات المستغِلة تدريجاً ؛ وعندما أُدخلت تعديلات جوهرية أساسية على البناء الاشتراكى السوفييتى ، وعندما أخضعت العناصر المناهضة للحزب الآراء السياسية والاجتماعية المعارضة لفلسفة لينين ، وحاقت الهزيمة السياسية بالأفكار التى روّج لها أعداء الحزب ... حدث عندما تم ذلك كله أن بدأت الإجراءات القامعة توجّه ضد هؤلاء الأعداء .

نعم بدأ القمع بعد ذلك ... ففى خلال الأعوام ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، بدأت عمليات القمع الجماعية بوساطة الجهاز الحكومى ... بدأت ضد أعداء فلسفة لينين أولاً ، ثم ضد أتباع تروتسكى وزينوفييف وبوخارين ، مع أن هؤلاء كانوا قد حاقت بهم هزيمة سياسية كبيرة على يد حزبنا ... ثم بدأ القمع يوجّه ضد عدد كبير من الشيوعيين المخلصين ، وضد بعض القادة المجاهدين الأوائل الذين تحملوا مرارة الكفاح

أثناء الحرب الأهلية وأثناء الكفاح من أجل التصنيع ، وتطبيق نظام المزارع الجماعية ، الذين حاربوا بقوة ضد أتباع تروتسكى واليمينيين من أجل نصرة الحزب .

ولقد ابتدع ستالين فى ذلك الوقت تهمة « عدو الشعب » التى كان يصم بها بطريقة آلية و بغير حاجة أو مبرر ، كل شخص لا تتفق آراؤه مع آرائه . وأمكن بفضل هذه التهمة التى ابتدعها ستالين اللجوء إلى أقسى الإجراءات القامعة ، و إلى خرق شتى مناهج الحزب وشرعيته الثورية ، وقد استخدمت ضد أولئك الذين لم يكن هناك ثمة ما يدينهم سوى قليل من الشك غير المؤكد فى نواياهم أو مجرد وصمة عابرة تشوب سمعتهم . والحقيقة أن كلمة « عدو الشعب » هذه قد اقتلعت جذور المعركة الفكرية وجعلت الالتجاء إلى شرح المبادىء التى يعتنقها فرد ما حتى ولو كانت قائمةً على أسس عملية ، أمراً لا ضرورة له . وفى الحقيقة أيضاً ، أن الدليل الوحيد على الإتهام كان « الاعتراف » الذى يدلى به المتهم تحت وطأة التعذيب الجسمانى رغم ما فى ذلك من منافاة لشتى القيم القانونية المعاصرة .

وأدى ذلك كله إلى خرق الشرعية الثورية ، و إدانة أشخاص أبرياء كثيرين كانوا فى الماضى من حماة الحزب .

و يجب علينا أن نعترف بأنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى إذلال أولئك

الأشخاص الذين عارضوا الحزب أثناء حياتهم . إذ أن عبارة « عدو الشعب » أخترعت لغرض معين بالذات هو إذلال أمثال هؤلاء الأشخاص .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، أن كثيراً من الأشخاص الذين وُصموا بتهمة عداوة الحزب والشعب ، كانوا من العاملين مع لينين أثناء حياته . ولقد ارتكب بعض هؤلاء الأشخاص بضعة أخطاء أثناء حياة لينين ، ولكن لينين استطاع رغم ذلك ، أن يفيد الشيء الكثير منهم ، كما أنه كان يعمد إلى تصحيح آرائهم وتقويمهم ، باذلاً كل ما فى وسعه للابقاء عليهم بين صفوف الحزب ، مشجعاً إياهم على أن يسيروا على منواله .

ولقد كانت حصافة لينين فى معاملة الناس واضحة كل الوضوح فى علاقته بالمجاهدين القدامى .

أما علاقة ستالين بالناس فقد كانت ذات خصائص مختلفة كل الاختلاف عن ذلك . فقدرة لينين الفائقة الصابرة على معاملة الناس ، والتجاؤه العنيد المضنى إلى تثقيف أمثال هؤلاء الناس وتنويرهم ، وقدرته على إقناع الناس بأن يتبعوه ويسيروا وراءه بغير التجاء إلى الضغط أو الإكراه وإنما بوساطة إخضاعهم للنفوذ الفكرى الجماعى ... كل هذه الخصائص كان ستالين يفتقر إليها . فقد نبذ ستالين الوسائل اللينينية القائمة

على أساس الإقناع والتثقيف ، كما عزف عن استخدام التأثير الفكرى مفضلاً عليه العنف الإدارى ، والقمع الجماعى والرعب . ولقد عمد إلى ذلك كله على نطاق واسع و بعناء و إصرار عن طريق إدارات أنشئت خصيصاً لمعاقبة الآخرين ، و بوسائل تنطوى على خرق لشتى ضروب الأخلاق والقوانين السوفييتية .

أيها الرفاق : —

إن الطغيان الذى يمارسه شخص واحد يشجع الآخرين على ممارسة الطغيان ضد غيرهم . ومن ثم ، فإن الاعتقالات واسعة النطاق ، ونفى الآلاف من الناس ، والإعدام بغير محاكمة و بغير تحقيق ؛ خلقت أوضاعاً يشوبها الشعور بعدم الأمان والخوف واليأس أيضاً .

وغنى عن البيان أن مثل تلك الأوضاع لم تخدم قيام الوحدة بين أفراد الحزب وشتى قطاعات الطبقة العاملة . بل إنها على النقيض من ذلك ، قد أدت إلى إذلال وطرد بعض أعضاء الحزب العاملين الذين أخلصوا لقضية الحزب وشعر ستالين بأن وجودهم لم يكن يهيىء له الراحة التى كان ينشدها .

ولقد كافح حزبنا طويلا من أجل تنفيذ الخطط التى وضعها لينين لإرساء البناء الاشتراكى . وكان هذا الكفاح فكرياً ، ولو أنه روعى

أثناء هذا الـكفاح ، الحرص على المبادىء التى وضعها لينين ، لـكان فى الإمكان — بالإضافة إلى تـكريس جهودنا لنصرة تلك المبادىء — الالتفات بشـكل أوفى إلى الشعب . ولو أن هذه الجهود لم تَضِع عبثاً فى الصراع ، واستُغلت بدلاً من ذلك فى العمل من أجل الصالح العام ، لـكان حتماً أن نجنب أنفسنا ذلك الخرق الذميم للشرعية الثورية ، ولما سقط آلاف الأشخاص صرعى العنف . فقد كان ينبغى أن تـكون الإجراءات الشاذة مقصورة على أولئك الذين ثبت أنهم ارتـكبوا جرائم فى حق النظام السوفييتى .

والآن دعونا نسترجع بعض الحقائق التاريخية : —

قبل ثورة أكتوبر ، أعلن عضوان من أعضاء اللجنة المركزية ، وهما كامينيف وزينوفييف معارضتهما لخطة لينين الخاصة بالقيام بإنقلاب مسلح . ولم يكن ذلك كل ما فى الأمر ، بل أنهما فى يوم ١٨ أكتوبر نشرا فى مجلة « نوفايازيزن » التى كانت تنطق بلسان المونشفيك (الأقلية) بياناً قالا فيه أن البولشفيك (الغالبية) يستعدون للقيام بانقلاب مسلح ، وأنهما يعتقدان أن هذا الانقلاب مغامرة فاشلة . وهكذا كشف كامينيف وزينوفييف للأعداء عن قرار كانت اللجنة المركزية قد اتخذته بشأن هذا الانقلاب الذى كان مُقدراً أن يحدث بعد ذلك بوقت قصير .

ولقد كان ذلك الصنيع من جانبهما خيانة للحزب وللثورة . فماذا فعل لينين ؟ لقد كتب فى ذلك يقول « كشف كامينيف وزينوفييف للأعداء من أمثال رودزيانسكو وكيرنسكى عن القرار الذى اتخذته اللجنة المركزية للحزب بشأن الإنقلاب المسلح » . لم يقل لينين أكثر من ذلك ، ثم رفع أمر البت فى طردهما من الحزب إلى اللجنة المركزية .

ومع ذلك ، فبعد أن نجحت ثورة أكتوبر الإشتراكية الكبرى ، أسند إلى زينوفييف وكامنيف — كما هو معروف — منصبان رئيسيان . فقد وضعهما لينين فى مناصب مكّنتهما من ممارسة مسئوليات حزبية على جانب كبير من الأهمية ، كما مكّنتهما من الإسهام بنشاط فى المنظمات الرئيسية التابعة للحزب . هذا إلى أن كامنيف وزينوفييف — كما هو معروف لكم — ارتكبا عدداً آخر من الأخطاء الجسيمة أثناء حياة لينين . ومع أن لينين قال فى « وصيته » أن الخطأ الذى ارتكباه فى حق ثورة أكتوبر لم يكن مجرد « مصادفة » ، فإنه لم يفكر قط فى اعتقالهما ، وبالتالى لم يفكر — طبعاً — فى إعدامهما .

كذلك خذوا مثلاً ما حدث لأنصار تروتسكى ... ففى الوقت الحاضر ، وبعد أن انسلخت من التاريخ فترة طويلة من الزمن ، نستطيع أن نتحدث عن المعركة التى خاضها الحزب ضد أتباع تروتسكى ، حديثاً هادئاً ، كما نستطيع أن نحلل هذه المعركة تحليلاً موضوعياً دقيقاً . وينبغى

أن نقول بادىء ذى بدء أن بعض الذين التفوا حول تروتسكى كانوا ينحدرون من مجتمع لا يمكن أن نسميه بأية حال من الأحوال مجتمعاً برجوازياً . فبعض هؤلاء الأتباع كانوا من طبقة الحزب المثقفة ، كما كان البعض الآخر من صميم الطبقة العاملة . وفى وسعنا الآن أن نذكر أسماء أفراد كثيرين انضموا إلى جماعة تروتسكى ، ولكنهم فى الوقت نفسه ساهموا بنشاط فى الحركة العمالية التى سبقت الثورة ، كما ساهموا فى ثورة أكتوبر الإشتراكية نفسها ، وفى تدعيم نجاح هذه الثورة الكبرى . بل أن كثيراً منهم خرجوا على مبادىء تروتسكى واستعادوا إيمانهم بمبادىء لينين ... فهل كان من الضرورى إذلال أمثال هؤلاء الأشخاص ؟ إننا على يقين من أنه ما كان ليقع هؤلاء الأشخاص ضحية إجراءات تعسفية ، لأن لينين كان لا يزال على قيد الحياة .

إن ما ذكرته ليس سوى بضع حقائق تاريخية . ولكن هل تعنى هذه الحقائق أن لينين لم يكن يعمد إلى أكثر الوسائل عنفاً وقوة ضد أعداء الثورة حينما كان الأمر يتطلب ذلك ؟ لا بالطبع . وليس فى وسع أحد أن يقول شيئاً من هذا القبيل . فقد كان لينين يطالب بعدم التسامح مع أعداء الثورة والطبقة العاملة . وكان يعمد إلى الإجراءات العنيفة القاسية عندما تقتضى الضرورة ذلك . ولعلكم تتذكرون ما فعله لينين فى حربه ضد المناهضين الثوريين للثورة . وضد زعماء « الكولاك » الذين حاولوا

القيام بثورة مضادة عام ١٩١٨ ، وضد أشخاص آخرين لم يتردد لينين فى محاربتهم باعتبارهم أعداء للنظام السوفييتى . ولكن لينين لم يكن — مع ذلك — يلجأ إلى مثل هذه الإجراءات إلاّ ضد الأعداء الحقيقيين : أما أولئك الذين كانوا يخطئون أو ينحرفون إنحرافات يمكن إصلاحها ، وأولئك الذين كان من المحتمل إخضاعهم بفضل التأثير الفكرى ... أما أولئك جميعاً ، فقد كان لينين يتسامح معهم ويبقى عليهم ويمكّنهم فى بعض الحالات من البقاء فى مناصبهم التى تتيح لهم الاشتراك فى القيادة .

أما ستالين فقد كان على النقيض من ذلك . كان يلجأ إلى الإجراءات العنيفة ووسائل القمع الجماعية فى وقت كانت الثورة فيه قوية ظافرة ، والنظام السوفييتى قوياً مستتباً ، والطبقات المستغلة مستأصلة الشأفة ، والاشتراكية صلبة عميقة الجذور فى الحقل الاقتصادى ، والحزب مكيناً من الناحية السياسية وراسخاً من الناحيتين الفكرية والعددية . وإنه لمن الواضح — بعد هذه الأمثلة — أن ستالين كشف فى كثير من الحالات عن عدم ميله إلى التسامح ، كما كشف عن وحشيته وسوء استغلاله للسلطة . بل إنه بدلاً من أن يصلح من ذات نفسه ومن قيادته السياسية ، وبدلاً من أن يشحذ همة الشعب ويجنده للبناء ، عمد إلى القمع ووسائل الإذلال المادية لا ضد الأعداء الحقيقيين فحسب ، ولكن ضد أفراد كثيرين أبرياء لم يرتكبوا أية جرائم ضد الحزب والحكومة السوفييتية .

ولا شك أن ذلك المنحى لايدل على أن ستالين كان حكيماً حصيفاً بقدر ما يدل على مزاجه الوحشى الذى كان موضع قلق لينين .

هذا إلى أنه أتيح للجنة المركزية للحزب أخيراً وخاصة بعد إماطة اللثام عن عصابة « بريا » أن تقف على الشيء الكثير من تلفيقات تلك العصابة ، ولقد كشفت هذه التلفيقات عن صورة كريهة من صور الوحشية المقصودة التى كانت إحدى خصائص شذوذ ستالين . فالحقائق التى وقفنا عليها تؤكد أن ستالين حينما استخدم سلطته غير المحدودة سمح لنفسه بإساءة استخدام هذه السلطة كثيراً ، ولم يتورع فى ذلك عن إساءة استخدام هذه السلطة باسم اللجنة المركزية التى لم يكن يحفل باستشارة أعضائها أو أعضاء المكتب السياسى التابع لها . بل إنه كان فى معظم الحالات ، لا يحيط رفاقه علماً بالقرارات الفردية التى كان يتخذها بشأن المسائل الحزبية والحكومية ذات الأهمية القصوى .

* * *

أيها الرفاق :

أعود إلى مسألة تقديس الفرد — فأقول أنه ينبغى علينا لكى نفهم هذه المسألة أن نشرح لكل فرد منكم مدى الضرر الذى حاق بمصالح حزبنا من جراء تقديس الفرد .

تعلمون أن فلاديمير اليش لينين كان يؤكد بإصرار دور الحزب في قيادة حكومة العمال والفلاحين الأشتراكية ، كما كان يؤكد بإصرار أيضاً مغزى هذا الدور . فقد كان يرى فيه الشرط الأساسي لنجاح البناء الإشتراكي في بلادنا . ومن ثم كان لينين يشير دائماً إلى المسئولية الضخمة التي يضطلع بها الحزب البلشفي باعتباره الحزب الموجه في بلادنا الاشتراكية ، مطالباً بضرورة الاحترام الكامل الشامل للوائح الحزب ومناهجه ؛ كما كان يطالب بضرورة الأخذ بمبادىء الزمالة في قيادة الحزب والدولة .

هذا هو ما كان يحدث في عهد لينين ... فهل رُوعيت مبادىء لينين المقدسة هذه بعد موت لينين ؟

الواقع ، أنه فيما يتعلق بالسنوات القلائل التي تلت موت لينين ، كانت مؤتمرات الحزب و إجتماعات اللجنة المركزية تعقد بشكل يكاد أن يكون منتظماً . ولكن حدث فيما بعد ، عندما بدأ ستالين يسيء استخدام سلطته على نطاق واسع ، أن خرقت تلك المبادىء خرقاً شنيعاً . وكان ذلك واضحاً على وجه الخصوص خلال السنوات الخمس عشرة السابقة على موته . فهل يُعقل أن ينقضي ثلاثة عشر عاماً دون أن يُعقد اجتماع لمؤتمر الحزب ؟ لقد حدث ذلك يا رفاق ! فبعد انعقاد المؤتمر الثامن عشر ، انقضت ثلاث عشرة سنة ، ثم انعقد المؤتمر التاسع عشر ؛ مع أن البلاد والحزب كانا يجتازان مراحل هامة و يواجهان أحداثاً خطيرة . كانت تقضي بصفة

قاطعة بأن يعقد الحزب اجتماعات دورية لإتخاذ قرارات بشأن الدفاع عن البلاد أثناء الحرب ، ولاتخاذ قرارات بشأن الإنشاء السلمى بعد الحرب. والأدهى من ذلك ، أنه حتى بعد أن انتهت الحرب ، مرت سبع سنوات ، قبل أن ينعقد مؤتمر الحزب ! .

أما فيما يتعلق باللجنة المركزية ، فنى الإمكان القول أنه لم تعقد أية اجتماعات لها على الإطلاق . ويكنى فى هذا الصدد ، أن أذكر أنه لم يعقد أى اجتماع للجنة المركزية خلال فترة الحرب .

حقيقة بذلت محاولة لعقد اجتماع للجنة فى أكتوبر ١٩٤١ . ودُعى الأعضاء من شتى أنحاء البلاد إلى موسكو ؛ ولكن الاجتماع لم يُعقد وظل هؤلاء الأعضاء مقيمين فى موسكو يومين كاملين فى انتظار عقد الاجتماع ، ولكن بغير جدوى . ذلك لأن ستالين لم يكن يرغب فى مقابلة هؤلاء الأعضاء أو التحدث إليهم . ولا شك أن هذه الحقيقة وحدها كفيلة بأن توضح مدى الانحلال الخلقى الذى أصاب شخصية ستالين فى الشهور الأولى من فترة الحرب ، ومدى التعاظم والقحة اللذين شابا معاملته لأعضاء اللجنة المركزية .

وفى الحقيقة ، أن ستالين كان يتجاهل النظم المقررة للحزب . كما كان يطأ بقدميه مبادىء لينين الخاصة بالقيادة الجماعية للحزب .

كذلك بدا تجبر ستالين على الحزب واللجنة المركزية واضحاً وضوحاً كاملاً عقب المؤتمر السابع عشر الذى عقده الحزب فى عام ١٩٣٤ .

فقد حصلت اللجنة المركزية على معلومات كثيرة فى هذا الصدد تكشف عن تجبر ستالين حيال بعض أعضاء الحزب القدامى المجاهدين . ومن ثم شكلت لجنة تخضع لرقابة المجلس الأعلى للجنة المركزية ، مهمتها التحقيق فى حقيقة الأسباب التى أدت إلى اتخاذ إجراءات قمع جماعية ضد معظم أعضاء اللجنة المركزية السابقين وضد أعضاء انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعى (البولشفيك) .

ولقد وقفت هذه اللجنة حديثة التشكيل على قدر كبير من المعلومات التى تضمنتها ملفات إدارة البوليس السرى ، كما وقفت على وثائق قد تتضمن حقائق كثيرة عن تلفيق بعض القضايا ضد شيوعيين مخلصين ، وعن اتهامات زائفة وجهت إليهم ، وعن سوء استغلال للشرعية الإشتراكية ، وهى كلها مثالب أطاحت بعدد من الأبرياء . ولقد كشفت هذه الوثائق والمعلومات عن حقيقة واضحة هى أن كثيرين من أعضاء الحزب ، ومن العناصر التى كانت تتولى الترويج للشيوعية فى الحقل الاقتصادى ، أتهموا زوراً و بهتاناً بأنهم « أعداء للشعب » فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، مع أنهم كانوا دائماً شيوعيين مخلصين ، ولم يكونوا قط فى يوم من الأيام أعداء أو جواسيس أو خونة . ولكنهم حينما وجدوا أنفسهم متهمين بارتكاب جرائم مشينة

لم يرتكبوها ، وحينما عجزوا عن مكابدة التعذيب الوحشى الذى تعرضوا له ، اتهموا أنفسهم (تنفيذاً لأوامر القضاة المحققين والمزيفين) بارتكاب كل ما يجول فى الخاطر من جرائم خطيرة وغير معقولة .

كل هذه المعلومات وقعت فى أيدى اللجنة التى تبحث تلك المآسى . وقد رفعت اللجنة إلى المجلس الأعلى للجنة المركزية مذكرات ووثائق مستفيضة تكشف عن القمع الجماعى الذى تعرض له المندوبون للمؤتمر السابع عشر . وأعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا أثناء انعقاد ذلك المؤتمر . كذلك قام المجلس الأعلى بدراسة هذه المذكرات والوثائق . ويُبيّن من تلك الوثائق أن من بين المائة وتسعة وثلاثين عضواً الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ، ثمانية وتسعون (أى حوالى ٧٠ ٪) اعتقلوا وأعدموا رمياً بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على وجه الخصوص .

والآن ، ما هو الوضع الذى كانت عليه هيئة المؤتمر السابع عشر ؟ لاشك أنه من المعروف أن ثمانين فى المائة من أعضاء المؤتمر السابع عشر الذين اشتركوا فى الإقتراع ، كانوا أعضاء قدامى . فقد انضموا إلى الحزب أثناء الحرب وهذا يعنى أنهم انضموا إليه قبل عام ١٩٢١ ، وكان ستون فى المائة منهم — من ناحية الأصل الاجتماعى — عمالاً .

فهل كان من المعقول — والحالة هذه — أن ينتخب المؤتمر المشكل

على ذلك الوضع لجنة مركزية ينتمى غالبيتها إلى طبقة أعداء الحزب ؟ لا ، وإنما التفسير الوحيد لإتهام ٧٠ فى المائة من أعضاء اللجنة المركزية والمرشحين المنتخبين فى المؤتمر السابع عشر بأنهم أعداء الحزب والشعب . هو أن الشيوعين المخلصين كانوا يضطهدون وتلفق القضايا والاتهامات ضدهم . كما أن شرعية الثورة كانت تنتهك إنتهاكاً صارخاً .

ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، وإنما كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر للحزب . فمن ١٩٦٦ مندوباً كانوا يملكون حق الاشتراك فى الإقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ، ألقى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة . من هذا يبين أن عدد أولئك الذين ألقى القبض عليهم كان أكثر من الغالبية . ولا شك أن هذه الحقيقة فى ذاتها كفيلة بأن توضح مدى ما كانت عليه تلك الاتهامات من سخف وقسوة ومجافاة للمنطق . إذ كيف يعقل أن توجّه تهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة إلى غالبية المشتركين فى ذلك المؤتمر ، كما أوضحت لكم ؟

هذا إلى أنه ينبغى علينا أن نتذكر أن ذلك المؤتمر السابع عشر كان يُسمّى « مؤتمر الانتصارات » . فالمندوبون الذين اشتركوا فيه كانوا مجاهدين عاملين فى حقل البناء الاشتراكى ، كما أن كثيرين منهم قاسوا كثيراً وكافحوا من أجل مصالح الحزب أثناء الأعوام السابقة على الثورة

وأثناء التحضير لها ، وأثناء الحرب الأهلية . ولقد حاربوا أعداءهم بشجاعة نادرة ، كما واجهوا الموت بأعصاب لا تلين . فكيف يمكن والحالة هذه ، أن نعتقد أنهم كانوا منافقين ؟ وأنهم كانوا ينتمون إلى معسكر أعداء الإشتراكية بعد الهزيمة السياسية التى حاقت بإنصار زينوفييف وتروتسكى واليمينيين ، و بعد الانتصارات الإنشائية التى حققتها الإشتراكية ؟

هذا هو ما نجم عن سوء إستغلال ستالين لسلطته والتجائه إلى استخدام الرعب الجماعى ضد المجاهدين القدامى .

فما هو السبب فى أن القمع الجماعى الذى وُجّه ضد المروجين للحزب اذداد حِدّة وشدة بعد المؤتمر السابع عشر للحزب ؟ إن السبب ، هو أن ستالين كان فى ذلك الوقت قد رفع نفسه إلى مرتبة تعلو على الحزب والدولة ، فلم يعد يحفل أى احتفال باللجنة المركزية أو الحزب . فبعد أن كان يأخذ نفسه برأى القيادة الجماعية إلى ما قبل إنعقاد المؤتمر السابع عشر ، أصبح بعد الانتصار السياسى الكامل على أنصار تروتسكى وزينوفييف و بوخارين ، و بعد أن أسفر الكفاح ضد الأعداء عن نجاح الإشتراكية وتدعيم وحدة الحزب ... أصبح ستالين بعد ذلك لا يحفل أى إحتفال بأعضاء الحزب واللجنة المركزية والمكتب السياسى أيضاً . ذلك أن ستالين إعتقد حينذاك أنه قد آن الأوان لأن يتولى وحده البت فى كل الأمور ، وأن كل ما يحتاج إليه هو جماعة من واضعى الإحصائيات والتقارير ، ومن ثم راح يعامل

الجميع بطريقة لا تسمح لهم إلاّ بأن يستمعوا إليه و يسبحوا بحمده .

فبعد الجريمة الوحشية التى ذهب ضحيتها « كيروف » ، بدأت أعمال القمع الجماعى وانتهاك شرعية الثورة الاشتراكية . ففى مساء أول ديسمبر عام ١٩٣٤ ، و بأمر ستالين دون موافقة المكتب السياسى — هذه الموافقة التى لم تتم إلاّ بعد يومين — وقع « نيوكيدز » سكرتير مجلس الرئاسة الأعلى للجنة التنفيذية للحزب القرارت والتوجيهات التالية : —

أولاً : ينبغى على الهيئات التى تتولى التحقيق الإسراع فى تحقيق قضايا المتهمين باعداد جرائم العنف أو الإشتراك فى تنفيذها .

ثانياً : على الهيئات القضائية ألاّ تؤجل تنفيـذ أحكام الإعدام فى المتهمين الذين تنطبق عليهم الحالة السابقة وألاّ تحفل بالتماسات العفو التى قد تُقدّم فى هذا الصدد ؛ ذلك أن مجلس الرئاسة الأعلى للجنة المركزية التنفيذية قرر عدم السماح بتقديم مثل هذه الالتماسات .

ثالثاً : على الهيئات التابعة لوزارة الداخلية (قوميسيرية الشئون الداخلية) تنفيذ أحكام الإعدام على الفور فى المجرمين الذين تنطبق عليهم الحالة السابقة عقب صدور هذه الأحكام مباشرة .

وسرعان ما أصبحت هذه التعليمات والتوجيهات الأساس الذى استندت إليـه إجراءات القمع المنطوية على انتهاك صارخ للشرعية

الاشتراكية . ففي معظم القضايا الملفقة ، كانت التهمة هي « تدبير » أعمال إرهابية . وكان معنى ذلك ألا رجاء أو أمل في إعادة التحقيق مع المتهمين حتى ولو قرروا أمام المحكمة أن « الاعترافات » المنسوبة إليهم كانت نتيجة لاستخدام القوة أو إذا استطاعوا بطريقة مقنعة دحض التهم الموجهة إليهم .

وينبغي أن يكون معروفاً أن الملابسات التي أحاطت بمقتل « كيروف » تخفي حتى يومنا هذا أشياء كثيرة من العسير تفسيرها لما تنطوي عليه من ألغاز ، الأمر الذي يقضي بإعادة دراسة قضيته دراسة فاحصة . فهناك أسباب تدعو إلى الشك في إن « نيكولاييف » قاتل « كيروف » كان يلقى تأييداً من شخص ما كان الواجب المفروض عليه هو حماية « كيروف » وحراسته . كما أن « نيكولاييف » كان قد اعتقل قبل مصرع « كيروف » بشهر ونصف شهر بتهمة الاشتباه في مسلكه المريب ، ولكنه أطلق صراحه دون أن يُفتش أو يتحرى عنه . وثمة إعتبار آخر لايقلّ ريبة هو أن الحارس الذي كان مكلفاً بحراسة « كيروف » قد لقي مصرعه في يوم ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٤ — وهو اليوم الذي كان مقرراً أن يدلي فيه بشهادته أمام المحققين — في « حادث سيارة » ، لم يصب فيه أي شخص غيره . أما كبار المسئولين عن البوليس السري في لينجراد فقد صدرت ضدهم بعد موت « كيروف » أحكام خفيفة ، ولكنهم اعدموا رمياً بالرصاص بعد

ذلك فى عام ١٩٣٧ . ولا شك أن هذه الملابسات توحى بأنهم اعدموا لكى يسدل ستار كثيف على كل الآثار التى قد تكشف عن شخصية مدبّرى مقتل « كيروف » .

وازدادت حدة القمع الجماعى على نطاق واسع إبتداء من نهاية عام ١٩٣٦ على أثر برقية بعث بها ستالين وزادانوف من مصيف سوشى إلى كاجانوفيتش ومولوتوف وغيرهما من أعضاء المكتب السياسى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٦ . وفيما يلى نص البرقية :— «إننا نعتقد أنه من الضرورى وبصفة ملحّة تعيين يزهوف قوميسيراً (وزيراً) للشئون الداخلية . فقد برهن ياجودا على أنه غير قادر على إماطة اللثام عن تروتسكى وزينوفييف. إن إدارة البوليس السرى التى يشرف عليها متخلفة فى هذا الصدد لأكثر من أربع سنوات . وقد شعر بذلك جميع العاملين بالحزب ومعظم ممثلى إدارة البوليس السرى نفسه . » هذا هو ما قاله ستالين فى برقيته ؛ وأؤكد لكم تأكيداً قاطعاً أن ستالين لم يكن حينما كتب تلك البرقية ، قد إجتمع بأحد من أعضاء الحزب العاملين وبالتالى لم يكن يعرف حقيقة موقف الحزب من هذه المسألة .

والحق أقول لكم ، أن ما قاله ستالين عن « تخلّف إدارة البوليس السرى لأكثر من أربع سنوات » فى تطبيق إجراءات القمع الجماعى ؛ وعن ضرورة تنشيط رجال البوليس السرى ، قد دفع إدارة البوليس

السرى بصفة مباشرة إلى القيام بحركة واسعة النطاق من الإعتقالات والإعدام .

وينبغى علينا أن نذكر أن ما قاله ستالين فى هذا الصدد قد فرض فرضاً على الجلسة التى عقدتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى عام ١٩٣٧ . فقد اضطر المجتمعون فى هذه الجلسة إلى الموافقة على قرارات ستالين استناداً إلى تقرير من يزهوف تحدث فيه عن النشاط الضار والإنحراف والتخريب والتجسس الذى قام به وكلاء تروتسكى الألمانيون واليابانيون . وفيما يلى نص القرار الذى صدر فى ذلك الحين :

« تعتقد اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أن جميع الحقائق التى أزيح عنها الستار أثناء التحقيق فى مسألة وجود مركز مناهض المبادىء السوفييتيه يتزعمه أنصار تروتسكى ووكلاؤهم فى الأقاليم ، تدلّ على أن قوميسييرية (وزارة) الشئون الداخلية قد تخلفت لأكثر من أربع سنوات على الأقل فى الكشف عن أعداء الشعب » .

وهكذا أتخذت إجراءات قمع جماعية فى ذلك الوقت تحت ستار الزعم بمحاربة أنصار تروتسكى . فهل كان أنصار تروتسكى فى ذلك الوقت يؤلفون مثل هذا الخطر على حزبنا والنظام السوفييتى ؟ لاشك أنكم تتذكرون أنه فى عام ١٩٢٧ على أثر إجتماع المؤتمر الخامس عشر للحزب لم يقترع فى صف

المعارضة التى تزعمها تروتسكى وزينوفييف سوى ٤٠٠٠ شخص ، على حين اقترع ٧٢٤ ألف شخص فى صف الحزب . وفى خلال السنوات العشر التى انسلخت بعد المؤتمر الخامس عشر وسبقت إجتماع اللجنة المركزية ، أمكن تجريد أنصار تروتسكى تجريداً كاملاً من سلطتهم وقوتهم ، كما أن كثيراً من أنصار تروتسكى السابقين عدلوا عن آرائهم السابقة وساهموا فى شتّى نواحى الجهود المؤدية إلى البناء الاشتراكى . ولا شك أنه قد اتضح لكم الآن أن انتصار الاشتراكية فى ذلك الحين كان من القوة بحيث لا يقتضى الأمر بث الذعر على نطاق واسع فى نفوس الشعب .

كذلك كان تقرير ستالين الذى عرض على اللجنة المركزية فى دورة فبراير — مارس ١٩٣٧ ، عن « قصور الحزب عن القضاء على أنصار تروتسكى والمنافقين من أمثالهم » مجرد محاولة لتبرير إجراءات القمع الجماعى تبريراً نظرياً بحجة أنه كلما قطعنا شوطاً إلى الأمام نحو تحقيق المجتمع الإشتراكى ، كان حتماً أن تزداد الحرب الطبقية حدّة وعنفاً . ولقد زعم ستالين فى تبرير ذلك أن تعاليم لينين ودروس التاريخ تقضى بهذا .

حَقيقةً أن لينين علّمنا أن الأخذ بالعنف الذى تقتضيه الثورة ، يُصبح أمراً ضرورياً فى حالة قيام معارضة تتزعمها الطبقات المُستغِلة ، وقد كان ذلك يصدق على المرحلة التى كانت فيها الطبقات المُستغِلّة قائمة قوية .

ولـكن لينين نفسه بعد أن تحسّن الوضع السياسى فى يناير ١٩٢٠ على أثر إستيلاء الجيش الأحمر على روستوف والقضاء على أعداء الثورة ، أمر « وزهرنسكى » (مدير البوليس السرى فى ذلك الوقت) بالـكفّ عن الإرهاب الجماعى و بإلغاء عقوبة الإعدام . و برّر لينين ذلك الإتجاه السياسى الهام بأدلة وردت فى التقرير الذى عرضه على اجتماع اللجنة المركزية فى ٢ فبراير ١٩٢٠ ، إذ قال :

« لقد كنا مضطرين إلى استخدام العنف نتيجة للنشاط الإرهابى الذى قام به أعداؤنا ، ونتيجة للضغط القوى الذى مارسته الدول الـكبرى ضدنا . وما كان لنا أن نبقى أكثر من يومين ، لو أننا لم نرد على أعدائنا بهذه القسوه المريرة ، أى استخدام العنف . ولـكننا كنا مضطرين إلى ذلك بسبب المحاولات الإرهابية التى قام بها أعداؤنا . غير أننا بعد أن أحرزنا النصر الساحق على إثر الاستيلاء على روستوف وقبل أن تنتهى الحرب ، عمدنا إلى التخلى عن التوسل بعقوبة الإعدام ؛ ذلك أننا أردنا أن نبرهن على أننا ننوى تنفيذ برامجنا بالصورة التى وعدنا الشعب بها . فقد كنا نقول إن استخدام العنف كان نتيجة حتمية لضرورة التغلب على المُستغلين وأصحاب الإقطاعيات والرأسماليين . ومن ثم فإننا بمجرد نجاحنا فى القضاء على هذه العناصر ، سوف نـكف عن جميع الإجراءات الشاذة . ولقد أوفينا بالوعد و برهنا على ذلك بطريقة عملية » .

هذا هو ما قاله لينين عام ١٩٢٠ . ولكن ستالين إنحرف عن هذه المفهومات الواضحة التى بشر بها لينين . فقد جنّد الحزب والبوليس السرّى فى معركة الارهاب الجماعى فى وقت كانت فيه الطبقات المُستَغِلّة قد قضى عليها فى بلادنا ، وفى وقت لم تكن ثمّة أسباب ضرورية تدعو إلى استخدام إجراء شاذ مثل الإرهاب الجماعى .

ذلك إن الإرهاب لم يكن موجّها فى حقيقة الأمر ضد بقايا الطبقات المُسْتَغِلّة ، وإنما كان موجّها ضد الرفاق العاملين فى الحزب ، وضد مؤسسى النظام السوفييتى بطريقة استُحِلّت فيها شتى أنواع الإتهامات الكاذبة المُلفقّة والسخيفة ، إذ اتهم كثير من هؤلاء الرفاق بالنفاق والتخريب والتجسس والتآمر .

ولقد أُثيرت فى حقيقة الأمر ، أثناء دورة فبراير — مارس ١٩٣٧ التى عقدتها اللجنة المركزية ، عدة أسئلة عن مدى عدالة إجراءات القمع الجماعى التى اتُخِذت بحجة القضاء على المنافقين . وعبّر الرفيق بُستيشيف بدقة وصراحة عن الشكوك التى ساورت النفوس فى هذا الصدد حين قال : « . . . أما وقد انقضت سنوات الكفاح المرير ، فإن بعض أعضاء الحزب الذين فقدوا القوة على المضى فى الكفاح ، إما خرجوا من صفوف الحزب أو إنضموا إلى معسكر الأعداء . أما الأعضاء الأشداء الذين لم يفقدوا صلابتهم ، فقد مضوا فى كفاحهم من أجل الحزب . وإننى لأقصد

بسنوات الكفاح المرير تلك السنوات التي شهدت مرحلة التصنيع وتطبيق النظام الجماعي . ولم يكن يدور بخلدى أن شخصاً مثل « كبروف » وأمثاله العاملين سوف يجد نفسه فى يوم من الأيام ، و بعد إنقضاء تلك السنوات العصيبة ، قد أصبح فى معسكر الأعداء . [كان كبروف المشار إليه فى هذا الحديث أحد الأعضاء العاملين باللجنة المركزية للحزب الشيوعى الأوكرانى ، كما كان صديقاً شخصياً للرفيق بوستيشيف الذى أدلى بهذا الحديث] . ولكننى الآن بعد أن علمت ما علمت من أمره أجد نفسى مُطالباً بأن أعتقد أنه كان فى عام ١٩٣٤ منتمياً إلى جماعة تروتسكى . إننى شخصياً لا أصدق أن عضواً مخلصاً من أعضاء الحزب ، مضى فى طريق الكفاح الطويل ضد أعداء الحزب ، وناضل من أجل الحزب والاشتراكية ، يمكن أن يتحول إلى معسكر الأعداء عام١٩٣٤. إننى لا أصدق مثل هذا الزعم . . . ولست أتصور كيف يمكن أن يظلّ مثل هذا الشخص فى الحزب أثناء السنوات العصيبة ، ثم يهجره فى عام ٣٤ لينضم إلى جماعة تروتسكى . . . إنه لأمر شاذّ غريب » .

إن ما قاله ستالين فى إحدى عباراته المشهورة من أنه كلما اقتربنا من الاشتراكية ، إزداد عدد أعدائنا ؛ إن هـذا القول بالإضافة إلى القرار الذى وافقت عليه اللجنة المركزية للحزب فى دورة فبراير — مارس إستناداً إلى تقرير يزهوف ؛ كل ذلك أتاح لمروجى الإرهاب الذين تغلغلوا فى شتى

إدارات الأمن العام ، ولأولئك المحترفين المجردين من الضمير ، فرصة ممارسة الإرهاب الجماعى تحت ستار الدفاع عن الحزب ، ضد المجاهدين القدامى والعاملين من أجل نصرة النظام السوفييتى والمواطنين السوفييت أنفسهم . وقد يكفى فى هذا الصدد ، أن أذكر لكم أن عدد الذين اعتقلوا بتهمة ارتكاب جرائم ضد الثورة زاد بمعدل عشرة أضعاف خلال عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ ، وأن الاستبداد الوحشى قد استُخدم ضد بعض قادة الحزب .

كذلك إتضح بعد إعادة دراسة قضايا بعض أولئك الذين أُتهموا بالتجسس والتخريب ، أن جميع هذه الاتهامات لُفِّقت ضدهم تلفيقاً . كما أن الاعترافات التى نسبت إلى معظم المعتقلين الذين أُتهموا بالقيام بأعمال معادية للدولة قد حُصِلَ عليها بوساطة التعذيب و باستخدام وسائل وحشية غير إنسانية .

وفى الوقت ذاته كان ستالين ، كما قال لنا أولئك الذين كانوا أعضاء فى المكتب السياسى حينذاك ، لا يُطلع أولئك الأعضاء على التصريحات التى أدلى بها المتهمون عند ما أنكروا الاعترافات المنسوبة إليهم أمام المحكمة العسكرية ، وعندما كانوا يطالبون بإعادة التحقيق فى قضاياهم . فقد أدلى كثيرون بمثل هذه التصريحات ، ولا شك أن ستالين كان على علم بها جميعاً .

إن اللجنة المركزية تعتقد إعتقاداً جازماً أنه من الضرورى إخطاركم باعتباركم مندوبى المؤتمر العام بالشىء الكثير عن مثل هذه القضايا الملفقة التى لفقت ضد أعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر.

وكمثال على الإستفزاز المقيت والتزوير الكريه والخرق الإجرامى لشرعية الثورة ، أذكر لكم قضية الرفيق « إيخا » المرشح السابق لعضوية المكتب السياسى للجنة المركزية ، وهو أحد المجاهدين الأشداء الذين اشتركوا فى الحزب وجاهدوا من أجل نصرة النظام السوفييتى ، ويكفى أنه انضم لعضوية الحزب عام ١٩٠٥ .

فقد ألقى القبض على الرفيق « إيخا » يوم ٢٩ أبريل عام ١٩٣٨ إستناداً إلى معلومات تهدف إلى التشهير به . ولم يكن قد صدر أمر من النائب العام للاتحاد السوفييتى باعتقاله ، وان كان هذا الأمر قد صدر أخيراً بعد انقضاء ١٥ شهراً على اعتقاله .

وكان التحقيق الذى اجرى فى هذه القضية يتم بطريقة تنطوى على خرق فاضح للقانون السوفييتى ، كما كان يتسم بطابع الاستبداد والتلفيق. وأرغم الرفيق « إيخا » تحت وطأة التعذيب على أن يوقّع اعترافاً وضع صيغته القضاة المحققون . وكان هذا الاعتراف يشمل فيما يشمل إتهاماً لنفسه ولعدة أعضاء بارزين من الحزب بالقيام بنشاط مناهض للمبادىء السوفييتية.

وفى أول أكتوبر ١٩٢٩ بعث الرفيق « إيخا » إلى ستالين بظلامة نفى فيها الإتهام الموجه إليه نفياً قاطعاً ، وطالب بإعادة التحقيق فى قضيته . وقد قال فى هذه الظلامة « ليس هناك أشد إيلاماً للنفس ومدعاة للابتئاس من أن يجلس فى قفص الاتهام بسجن الحكومة رجل مثلى كان يكافح دائماً من أجل نصرة هذه الحكومة » .

وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٣٩ بعث « إيخا » الى ستالين بظلامة أخرى ذكر فيها عدة وقائع مقنعة ينفى بها الاتهامات المنطوية على التشهير به ، ذاكراً أن هذا الاتهام كان من صنع بعض الأعداء التروتسكيين الذين وافق من قبل على اعتقالهم حينما كان يشغل منصب السكرتير الأول للجنة الحزب فى غرب سيبيريا ، وأن هؤلاء الأعداء هم الذين تآمروا ضده للانتقام منه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان هذا الاتهام مؤسساً على وقائع لفقها القضاة المحققون .

فقد قال إيخا فى تلك الظلامة : و . . . فى يوم ٢٥ أكتوبر من هذا العام أُبلغت أن التحقيق فى قضيتى قد تمّ ، وسمح لى بالاطلاع على محاضر التحقيق . ولو أننى كنت قد ارتكبت بالفعل واحداً فى المائة من الاتهامات الموجهة إلىّ ، لماجرؤت على التوجه اليك بهذه الظلامة . والحقيقة أننى لم أرتكب أية جريمة على الإطلاق من تلك الجرائم ، واننى لأقول

ذلك بقلب مطمئن لا تشوبه أية شائبة . فإننى لا أذكر أننى قلت لك طيلة حياتى أية كلمة تنطوى على زيف أو بهتان ، كما أننى الآن فى الوقت الذى أرى فيه قدمىّ تسعيان إلى القبر ، لا أكذب عليك . إن قضيتى كلها مثل صارخ من أمثلة الاستفزاز والتشهير والخرق الصارخ للأسس الأولية للشرعية الثورية ... كما أن الاعترافات التى يحفل بها ملف قضيتى ليست منطوية على كثير من السخف فحسب ، وإنما تنطوى أيضاً على تشهير باللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وبمجلس قوميسييرى (وزراء) الشعب ، لأن القرارات السليمة التى كانت اللجنة المركزية للحزب قد اتخذتها ، والتى أقرها مجلس الوزراء ، والتى لم يكن لى نصيب فى اقتراحها أو الاشتراك فيها ، قد وُصفت بأنها إجراءات معادية للثورة والمنظمات الثورية ، وبأنها اتُخذت بوحى منّى . . . . والآن دعنى ألمّح إلى الشطر المخزى من حياتى ، وإلى الجريمة الخطيرة التى ارتكبتها فى حق الحزب وحقكم . . وأعنى بذلك الاعتراف المنسوب إلىّ الذى جاء فيه أننى قمت بنشاط مناهض للثورة .... إن الأمر على حقيقته هو كما يلى : لقد أُرغمت على اتهام نفسى وعدة أشخاص آخرين تحت وطأة التعذيب الذى لم أستطع احتماله ، ذلك التعذيب الذى أخضعنى له أوشاكوف ونيكولاييف وبخاصة أولهما الذى استغل ما كنت أشكو منه من شروخ فى ضلوعى ، وما كانت تسببه لى هذه الشروخ من آلام . . . . إننى أقرر أن معظم

ما جاء فى هذا الاعتراف قد أوحى به إلىّ « أوشا كوف » . أما الجزء الباقى من الاعتراف ، فهو لا يعدو أن يكون معلومات من ملفات البوليس السرى فى غرب سيبريا . يُفترض أنى أتحمل مسئوليتها الكاملة . وكان يحدث كلما بدت القصة المختلقة التى لفقها « أوشا كوف » وأرغمنى على توقيعها غير متماسكة ، أن يلفق صيغة جديدة يرغمنى على توقيعها أيضاً ... إنى أطلب إليك والحّ فى الرجاء أن تعيد دراسة قضيتى . ولست مدفوعاً إلى ذلك بالرغبة فى إنقاذ نفسى ، وإنما يدفعنى إلى ذلك الإيمان بضرورة إماطة اللثام عن هذا الاستفزاز الشرير الذى يسعى كالحية الرقطاء ، تلف جسمها حول أشخاص عديدين ... إنى لم أخنك ولم أخن الحزب . وإنى لأعلم أنى أندثر نتيجة لأعمال خسيسة شريرة قام بها أعداء الحزب والشعب ، الذين لفقوا تلك الإتهامات ضدى » .

وإنه ليبدو واضحاً ، أن مثل هذا التصريح الخطير كان ينبغى أن تدرسه اللجنة المركزية ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فقد حُوّل هذا الإلتماس إلى « بيريا » بينما استمرت المعاملة الشائنة للرفيق « إيخا » الذى كان مرشحاً لعضوية المكتب السياسى .

وفى ٢ فبراير ١٩٤٠ مثل « إيخا » أمام المحكمة ونفى الاتهامات الموجهة إليه قائلا « ليس فى هذا الإعتراف المزعوم المنسوب إلىّ كلمة واحدة كتبتها بمحض إرادتى سوى التوقيعات التى تحملها المحاضر التى

أُرغمت إرغاماً على توقيعها . ولقد وقّعت على هذه الاعترافات تحت وطأة الضغط الذى مارسه القاضى المحقق الذى كان يعذبنى منذ اللحظة الأولى لاعتقالى .. ثم اضطررت بعد ذلك اضطراراً إلى كتابة كل هـذا الهراء .... إن أهم ما يعنينى فى هذا الصدد ، هو أن أقول للمحكمة وللحزب ولستالين أننى لست مذنباً ، وأننى لم أكن مذنباً فى يوم من الأيام . وسوف أموت مؤمناً بسياسة الحزب التى كنت مؤمناً بها طيلة حياتى » .

وفى ٤ فبراير ١٩٤٠ اعدم « إيخا » رمياً بالرصاص . والآن يتضح لـكم بصورة قاطعه أن قضية « إيخا » كانت ملفقة .. ومن ثم ، فإن اعتباره يُرد إليه الآن ، ولـكن بعد موته ! .

وإليـكم مثـلاً آخر هو الرفيق « رودزتاك » الذى كان مرشحاً لعضوية المـكتب السياسى ، والذى إنضم إلى الحزب عام ١٩٠٥ ، والذى قضى عشر سنوات فى أحد معسكرات السخرة أيام الحـكم القيصرى ... لقد قال هو الآخر أمام المحـكمة إن الإعتراف الذى نُسب إليه جاء نتيجة إرغامه على الإدلاء به . وقد ورد فى محاضر جلسات المحـكمة العليا تصريح أدلى به « رودزتاك » سجلته المحـكمة على النحو التالى :

« إن الالتماس الوحيد الذى يتقدم به المتهم أمام المحـكمة ، هو أن تُخطَر اللجنة المركزية للحزب بأنه لا تزال توجد فى إدارة البوليس السرى

إدارة ينبغى القضاء عليها ، هى تلك الادارة التى تلفّق القضايا وترغم الأبرياء على الادلاء باعترافات مُلفّقة ، وأن المتهم لا تتاح له أية فرصة لاثبات عدم اشتراكه فى جرائم شهد بوقوعها أشخاص عديدون فى اعترافاتهم الملفقة ؛ وإن إجراءات التحقيق تتسم بطابع خاص هو حمل الشهود على الكذب والتشهير بأشخاص أبرياء تماماً بالاضافة إلى التشهير بأولئك الذين يحاكمون كمتهمين . ويطلب المتهم (أى رودزتاك) السماح له بأن يسجل كل هذه الملاحظات كتابةً لرفعها إلى اللجنة المركزية للحزب . ويؤكد المتهم للمحكمة أنه شخصياً لم يكن فى أى وقت من الأوقات يضمر شراً لسياسة الحزب ذلك لأنه كان دائماً موافقاً على السياسة فى شتى الميادين الاقتصادية والثقافية » .

هذا هو البيان الذى أدلى به « رودزتاك » ، ولكن أحداً لم يعبأ به على الرغم من أن « رودزتاك » كان فى ذلك الوقت رئيس اللجنة المركزية للمراقبة ، هذه اللجنة التى تم تشكيلها وفقاً لرغبة لينين ، من أجل تحقيق وحدة الحزب . . . وهكذا سقط رئيس هذه اللجنة التى كانت ذات سلطة ، ضحية الاستبداد الوحشى . وأكثر من ذلك أن « رودزتاك » لم تتح له فرصة المثول أمام المكتب السياسى للجنة المركزية ، لأن ستالين لم يكن يرغب فى التحدث إليه . ثم صدر ضده حكم بالاعدام بعد عشرين دقيقة ولقى حتفه رمياً بالرصاص .

هذا وقد اتضح بعد دراسة هذه القضية دراسة مستأنية دقيقة فى عام ١٩٥٥ أن الإتهام الذى وُجِّه إلى « رودزتاك » كان ملفقاً ، وأنه لم يكن معتمداً إلاَّ على معلومات تهدف إلى التشهير به . ولكننا الآن نرد إليه اعتباره .

وإليكم مثلاً آخر هو الرفيق روزنبلوم الذى انضم إلى الحزب عام ١٩٠٦ ، واعتقلته سلطات البوليس السرى فى لينينجراد عام ١٩٣٧ . وإنه لمثل يكشف عن كيفية التجاء سلطات البوليس السرى السابقة إلى إختلاق « مراكز مناهضة للمبادىء السوفييتية » ، « وجبهات » إستفزازية ، فقد اتضح ذلك كله من إعتراف روزنبلوم .

فعندما نوقشت قضية كوماروف عام ١٩٥٥ ، اتضح أن روزنبلوم كشف عن الحقيقة التالية : عندما ألقى القبض على روزنبلوم عام ١٩٣٧ ، تعرّض لتعذيب مرير أُرغم على أثره بالإدلاء بمعلومات كاذبة عن نفسه وعن أشخاص آخرين . ثم طُلب إليه المثول أمام زاكوفسكى الذى عرض عليه إطلاق سراحه على شريطة أن يدلى أمام المحكمة باعتراف زائف أعدّه رجال البوليس السرى عام ١٩٣٧ بشأن مراكز التخريب والتجسس والإنحراف والإرهاب فى لينينجراد . ثم راح زاكوفيسكى بصفاقة لا تُصدّق يشرح له كيفية « إختلاق » قصة عن هذه المراكز

لمناهضة للسوفيتية » المزعومه ودسائسها . فقد قال روزنبلوم فى اعترافاته « ولـكى يوضح لى زاكوفسكى خطته ، كان يُعدِّد شتى الفروع التى تعمل تحت إشراف هذا المركز . و بعد أن زوّدنى بالتفاصيل قال لى إن سلطات البوليس السرى سوف تُعِدّ قضية هذا المركز ، وأشار إلى أن المحاكمة سوف تـكون علانية . وكانت الخطة التى أعدها زاكوفسكى تقضى بمحاكمة أربعة أو خمسة أشخاص بتهمة إشرافهم على هذا المركز هم : شودوف ، أوجاروف ، سومورودين ، بوزرين ، شابوشنبـكوفا (زوجة شودوف) ، واثنين أو ثلاثة آخرين بتهمة إشرافهم على فروع هذا المركز . . . وكانت الخطة تقضى أيضاً بتلفيق هذه القضية تلفيقاً محكماً ، ومن ثم كانت الحاجة مُلِحة إلى شهودٍ يُراعى فى اختيارهم مكانتهم الاجتماعية والحزبية ... وقال لى زاكوفسكى فى هذا الصدد : فأنت مثلاً لن تختلق شيئاً ، لأن البوليس السرى سوف يُعد لك تقريراً شاملاً عن كل فرع من فروع ذلك المركز . وكل ما هو مطلوب منك هو أن تدرس هذا التقرير بعناية ، وأن تتذكر جميع الأسئلة والإجابات التى قد تثار أثنـاء المحاكمة . وسوف نفرغ من إعداد هذه القضية خلال أربعة أو خمسة شهور ، وربما نصف عام . وهكذا سوف تتاح لك خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن أن تدرب نفسك جيداً ، وتذكر دائماً أن مصيرك يتوقف على النحو الذى ستسير عليه المحاكمة ، وعلى نتائجها ، فإذا عمدت

إلى الـكذب أو الغش ، فلن تلومنّ إلاّ نفسك . أما إذا مضيت فى الشوط حتى النهاية فسوف تُنقذ حياتك ، وسوف نزوّدك بالمأكل والملبس طيلة حياتك . »

هذا الذى رويته لـكم خليق بأن يكشف عن الوسائل الشريرة التى كانت مُتّبعة حينذاك .

بل دعونى أذكر لـكم مثلاً آخر أكثر وحشية ، وأعنى بذلك تلفيق القضايا فى بعض مقاطعات بلادنا . فقـد لفقت إدارات البوليس السرى فى سفرديلوف وإبلاست قضية أطلقت عليهـا إسم « قضية الاضطرابات فى الأورال » والتى زعم البوليس السرى أن المتهمين فيهـا جماعة من اليمينيين والتروتسكيين ورجال الدين ، تحت زعامة كاباكوف سكرتير لجنة الحزب فى زفيردلوف والذى كان أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الذى انضم إليه عام ١٩١٤ . وقد دلت الوثائق المتعلقة بالتحقيقات على أن البوليس السرى فى ذلك الوقت إختلق وجود منظمات يمينية تروتسيكية تنشر الرعب والتخريب والتجسس فى شتى الأقاليم والمقاطعات . كما حرص البوليس السرى على أن يزعم أن قادة هـذه المنظمات كانوا ـــ لسبب غير مفهوم ـــ دائماً السكرتيرين الأوائل للمنظمات والجمعيات الحزبية .

ولقد لقى آلاف من الشيوعيين الأبرياء المخلصين حتفهم نتيجة لهذه التلفيقات الوحشية الدنيئة ، ذلك لأن جميع « الاعترافات » الكاذبة كانت تؤخذ مأخذ الجد ، ولأن كثيرين من المتهمين كانوا يُرغمون على اتهام أنفسهم فضلاً عن اتهام الآخرين . كذلك أُستخدمت نفس هذه الوسائل فى تلفيق قضايا ضد بعض أعضاء الحزب البارزين مثل كوسِيُور وشوبار و بوستيشيف وكوزاريف وآخرين .

فنى تلك السنوات كانت إجراءات القمع الجماعى تتخذ على نطاق واسع دون مبررات معقولة على الاطلاق ، الأمر الذى أدى إلى أن يفقد الحزب عدداً كبيراً من المجاهدين القدامى .

وكانت الوسيلة الشريرة فى هذا الشأن ، هى أن يُعدّ البوليس السرى قوائم بأسماء الأشخاص الذين تُنظر قضاياهم أمام المحكمة العسكرية ، والذين تحدَّد الأحكام التى سوف تصدر ضدهم سلفاً . ثم يرسل يوزهوف القوائم إلى ستالين شخصياً للتصديق على العقوبات المعدة سلفاً . وقد أُرسلت إلى ستالين خلال ١٩٣٧ — ١٩٣٨ قوائم عددها ٣٨٣ ، تحتوى على أسماء آلاف من أعضاء الحزب ومجالس السوفييت ومنظمة شباب الكومسومول ورجال الجيش و بعض العاملين فى الحقل الاقتصادى . ولقد صدّق ستالين على ما تضمنته هذه القوائم .

هذا وتعاد الآن دراسة عدد كبير من هذه القضايا . كذلك استبعد عدد كبير منها بعد أن ثبت أنها ملفقة ولا تقوم على أساس . ويكفى فى هذا الصدد أن أقول لكم إن المحكمة العسكرية قد ردت إعتبار ٧و٦٧٩ متهماً منذ عام ١٩٥٤ حتى الآن .

وأعود فأقول لكم ، إن الاعتقالات الجماعية لأعضاء الحزب ومجالس السوفييت والعسكريين والمشتغلين فى الحقل الاقتصادى ، قد ألحقت ببلادنا ضرراً بالغاً ، كما أضرت بقضية التطور الاشتراكى . كذلك أثّر القمع الجماعى تأثيراً سلبياً فى الحزب من الناحية الأخلاقية السياسية ؛ كما خلق حالة من عدم الاطمئنان ساعدت على انتشار الشكوك والريب ، وغرست عدم الثقة والخوف فى نفوس المجاهدين الشيوعيين . ذلك لأن المحترفين الذين حذقوا فنون التشهير كانوا يعملون بكل ما يملكون من قوة ونشاط .

وعلى الرغم من أن القرارات التى اتخذتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى يناير عام ١٩٣٨ قد أصلحت حال منظمات الحزب بعض الشىء ، إلاّ أن القمع الجماعى ظل قائماً فى ذلك العام كذلك .

ولولا أن حزبنا كان لا يزال متماسكاً قواه السياسية فى ذلك الوقت . ما كان فى إمكانه أن يصمد فى وجه الأحداث التى وقعت

في ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، ولما أفلح فى اجتذاب أعضاء جدد . ومع ذلك ، فليس ثمة شك فى أن تقدمنا نحو الاشتراكية ونحو تدعيم الدفاع عن البلاد كان خليقاً بأن يزداد ثباتاً وقوة ، لو أن الحزب لم يخسر هذا العدد الكبير من الرفاق العاملين الذين ذاقوا الأمرين من جراء إجراءات القمع الجماعى التى اتخذت عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ بلا مبرر على الاطلاق ودون أن تكون مستندة إلى شيء سوى التزييف والتلفيق .

و إننا لنتهم « يزهوف » بحق بأنه هو الشخص الذى أدار هذه الأحداث المؤسفة فى عام ١٩٣٧ ، ومع ذلك ، فعلينا أن نبحث عن أجوبة عن الأسئلة التالية :

هل كان فى وسع « يزهوف » أن يعتقل شخصاً مثل « كوسيور » مثلاً بدون أن يعلم ستالين بذلك ؟ . وهل حدث أن استشير أعضاء المكتب السياسى أو اتخذ قرار رسمى فى هذا الشأن ؟ ... لا ... لم يُستشر المكتب السياسى فى هذه الحالة أو فى أية حالة سواها ... وهل كان فى وسع « يزهوف » وحده أن يتخذ مثل هذه القرارات الخطيرة التى قررت مصير أعضاء بارزين بالحزب ؟ ... لا . بل إنه لمن البلاهة أن يعتقد أحد أن « يزهوف » كان يتخذ هذه القرارات بصفته الفردية . وإنه لمن الواضح أن ستالين هو الذى كان يقرر ، وأن « يزهوف » ما كان ليستطيع

أن يفعل شيئاً من هذا القبيل ما لم يكن قد تلقى من ستالين أمراً بذلك .

ولقـد قررنا بعد دراسة قضايا « كوسبيور » و « رودزتاك » و « كوساريف » وآخرين غيرهم ، رد اعتبارهم إليهم . ففيم إذن كان اعتقالهم وإصدار أحكام ضدهم ؟ إن الوثائق التى فى حوزتنا تقطع بأنه لم يكن هناك ما يوجب ذلك على الاطلاق . فقد أُعتقلوا — شأنهم فى ذلك شأن كثيرين غيرهم — دون أن يصدر بذلك الاعتقال أمر من النائب العام . وما دام الأمر كذلك ، فليس ثمة ما يدعو « يزهوف » إلى الحصول على موافقة المكتب السياسى . ألم يوافق ستالين على ذلك ؟ ألم يكن ستالين هو الذى يتخذ كل القرارات ؟ . . لقد كان بمثابة النائب العام !! .. بل إنه لم يكن يقنع بمجرد الموافقة على الاجراءات التى يتخذها « يزهوف » ، وإنما كان يصدر بنفسه فى بعض الأحيان الأوامر باعتقال بعض الأعضاء . وإنه لمن الواجب علينا أن نذكر ذلك كله لـكى يدرك المندوبون المشتركون فى هذا المؤتمر . مغزى ذلك كله ، عساهم يستطيعون بذلك أن يصلوا إلى النتائج الصحيحة .

إن الوقائع والحقائق التى فى حوزتنا تقطع بأن كثيراً من ضروب إساءة استخدام السلطة كانت تتم وفقاً لأوامر أصدرها ستالين ، دون أن تحترم تقاليد الحزب والقانون أو يلقى بال إليها . فقد كان ستالين رجلاً

شكا كما يطفح قلبه بالشكوك والريب . ولقد أدركنا ذلك نحن الذين عملنا معه : فمثلاً كان ينظر إلى شخص ما ثم يقول له : لماذا تومض عيناك بمثل هذا البريق اليوم ؟ » أو « لماذا تتحاشى اليوم أن ترفع عينيك إلى وجهى ؟ » . وكان هذا الشك المريض يثير فى نفسه ريبة مطلقة فى الناس ، بما فى ذلك الأعضاء البارزون الذين كان يعرفهم منذ سنوات طويلة . ومن ثم كان ستالين يتخيل فى كل زمان وفى كل مكان « أعداء » و « منافقين » و « جواسيس » .

وإذ كان ستالين يملك سلطة لا حدّ لها ، فإنه كان يعمد إلى الاستبداد وإذلال الناس مادياً ومعنوياً ؛ مما أدى إلى خلق حالة لا تتيح لأى شخص أن يعبّر عن رأيه أو إرادته تعبيراً حراً .

فمثلا إذا قال ستالين إن شخصاً ما يجب أن يُعتقل ، كان لابد أن يؤخذ كلامه قضية مسلماً بها ، وأن يعتبر هذا الشخص على الفور « عدواً للشعب » . وفى الوقت ذاته ، كانت عصابة « بيريا » التى أدارت جهاز الأمن العام ، تجهد نفسها فى إثبات التهمة على الشخص المعتقل ، وفى إسباغ صفة الصدق على المعلومات الزائفة التى كانت تلفقها . وماذا كانت طبيعة الأدلة التى تقدم فى هذا الصدد ؟ . . لم تكن هذه الأدلة تعد مجرد اعترافات يُرغم المتهمون على الادلاء بها ، ويأخذها القضاة المحققون مأخذ

الاعترافات الجديّة . والآن دعونا نتساءل : كيف كان المتهم يدلى باعترافات عن جرائم لم يرتكبها ؟ كانت السبيل إلى ذلك هى الضغط ، والتعذيب و إرغام المتهم على أن يفقد حواسه وصوابه حتى يصبح فى حالة لا يعى فيها ما يقول ولا يملك السيطرة على عقله ، و بعد أن يصبح مجرداً من كل كرامته الانسانية . . . وبهذه الطريقة كانت الاعترافات تُنزع من المتهمين .

وعندما بدأت موجة الاعتقالات توغل فى الانتشار عام ١٩٣٩ ، وراح قادة منظمات الحزب يتهمون سلطات البوليس السرى بالضغط على المعتقلين ، بعث ستالين ببرقية بالشفرة يوم ٢٠ يناير ١٩٣٩ إلى سكرتيرى منظمات السوفييت واللجان المركزية فى الأقاليم ووزراء الشئون الداخلية ورؤساء البوليس السرى جاء فيها ما يلى :

« تود اللجنة المركزية للحزب الشيوعى العام (البولشفيك) أن توضح لكم أنها منذ عام ١٩٣٧ سمحت لسلطات البوليس السرى باستخدام وسائل الضغط والقمع ... إن أقلام مخابرات البرجوازيين السرية — كما هو معروف لكم — تعمد إلى الضغط والقمع ضد ممثلى الطبقات الاشتراكية العمالية ، و إن أقلام المخابرات البرجوازية هذه ، لا تتورع عن أحط أنواع الضغط . . . فلماذا إذن والحالة هذه ، يُطلب إلى أقلام المخابرات الاشتراكية أن تكون أكثر إنسانية فى معاملتها لجواسيس

البورجوازيين وأعداء الطبقة العاملة والفلاحين ؟ إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العام ترى أن الاكراه البدنى يجب أن يُستخدم — بصفة إجبارية — كوسيلة استثنائية ضد أعداء الشعب المعروفين ، ذلك لأن هذه الوسيلة — فيما نرى — ملائمة ولها ما يبررها . »

وهكذا سمح ستالين لنفسه بأن يتحدث باسم اللجنة المركزية وبأن يوافق — بإسم هذه اللجنة — على هـذا الخرق الوحشى للشرعية الاشتراكية ، وأعنى بذلك الالتجاء إلى وسائل التعذيب والقمع ؛ هذه الوسائل التى أدت كما شرحت لـكم إلى التشهير بأبرياء كثيرين ، وإرغامهم على إتهام أنفسهم بارتـكاب جرائم لم يرتـكبوها .

ومنـذ أمد غير بعيد — أى قبل إنعقاد المؤتمر الحاضر بعدة أيام فقط ... دعونا اللجنة المركزية لمجلس الرئاسة الأعلى للانعقاد حيث أجرى استجواب القاضي المحقق « رودوس » الذى سبق أن استجوب فى ذلك الحق كلا من « كوسيو » و « وشوبا » و « كوساريف » . إنه رجل سافل ذو عقلية تافهة وأخلاق شديدة الانحطاط . . . ومع ذلك فإن هذا الرجل هو الذى كان يقرر مصير رجال الحزب البارزين . كما كان هو الذى يتولى إصدار الأحكام الخاصة بالسياسات المتعلقة بهذه الشئون . وذلك لأنه بعد أن لفق « جريمتهم » مضى يدعمها بالأسانيد التى يمكن أن يستخلص منها مواقف سياسية معينة .

والسؤال هنا هو : هل يستطيع رجل هذه صفاته ، أن يتولى وحده التحقيق بطريقة تثبت إدانة أشخاص من أمثال « كوسيور » وغيره ؟ كلا . لم يكن فى استطاعته أن يفعل ذلك دون أن يكون قد تلقى توجيهات معينة . ولقد قال لنا فى إجتماع اللجنة المركزيه لمجلس الرئاسة الأعلى « .. قيل لى أن « كوسيور » و « شوبار » عدوا الشعب ، ولهذا السبب كان علىّ ، بصفتى قاضى التحقيق ، أن أجعلهما يعترفان بأنهما عدوان . »

ولم يكن فى استطاعته أن يفعل ذلك إلاّ بالالتجاء إلى سلسلة طويلة من التعذيب . وهذا هو ما لجأ إليه فعلاً ، بعد أن تلقى تعليمات مفصلة من بيريا . ويجدر بنا أن نذكر أنه صرح أيضاً فى إجتماع اللجنة المركزية لمجلس الرئاسة الأعلى بقوله « ظننت أننى كنت أنفذ أوامر الحزب » . فبهذه الطريقة كانت أوامر ستالين تنفذ فيما يتعلق باستخدام طرق الاكراه البدنى مع الأشخاص المقبوض عليهم .

إن هذه الحقائق وغيرها تبين كيف أن جميع تقاليد الحزب الصحيحة لحل المشكلات قد أبطلت ، وأن كل شىء كان متوقفاً على إرادة رجل واحد .

ولقد أدى تركيز القوة كلها فى يد رجل واحد ، هو ستالين ، إلى نتائج خطيرة إبان الحرب الوطنية الكبرى . . .

وعند ما نستعرض كثيراً من قصصنا ، وأفلامنا و « دراساتنا العلمية » في التاريخ ، يبدو لنا أن الدور الذى قيل إن ستالين لعبه فى الحرب الوطنية الكبرى كان لا يحتمل التصديق . . فإن هذه المطبوعات تبين أن ستالين تكهن بكل شيء ! فهى تزعم أن الجيش السوفييتى استخدم تكتيك « الدفاع النشط » المزعوم على أساس الخطة الاستراتيجية التى أعدها ستالين قبل ذلك بوقت طويل ، ويقضى هذا التكتيك كما نعلم بالسماح للألمان بالتقدم حتى موسكو وستالنجراد ! كما تزعم أن الجيش السوفييتى عند ما نفذ هذا التكتيك استطاع ، بفضل عبقرية ستالين فقط ، أن يتحول إلى الهجوم والقضاء على العدو ! وبهذه الطريقة ، تعزو تلك القصص والأفلام و « الدراسات العسكرية » ذلك النصر الرائع الذى أحرزته القوات المسلحة الهائلة للشعب السوفييتى إلى عبقرية ستالين الاستراتيجية وحدها !

إن علينا أن نتحرى هذا الموضوع بعناية ، لأن له أهمية عظمى ليس فقط من وجهة النظر التاريخية ، وإنما أيضاً وبصفة خاصة من وجهات النظر السياسية والتعليمية والعملية .

فما هى حقيقة هذا الأمر ؟

قبل أن تنشب الحرب اتصفت صحافتنا وجميع أعمالنا السياسية

التعليمية بلهجة التفاخر كأن تقول : « عندما تسول لأحد الأعداء نفسه بالإعتداء على الأراضى السوفييتية المقدسة ، فإن كل ضربة من هذا العدو ستقابل بثلاث لطمات . ولسوف نقاتل العدو على أرضه ونكسب الحرب بغير أن نضار كثيراً » . ولكن هذه الأقوال لم تكن فى جميع الأحوال مبنية على حقائق وطيدة تضمن فعلاً منعة حدودنا .

وفى خلال الحرب ، وقبلها ، أثار ستالين موضوع المأساة التى تعرض لها شعبنا أثناء الشطر الأول من الحرب . وادعى أن دلك كان نتيجة الهجوم « غير المتوقع » الذى شنه الألمان على الاتحاد السوفييتى ، ولكن ذلك بعيد تماماً عن الحقيقة أيها الرفاق ، إذ بمجرد أن تولى هتلر زمام السلطة فى ألمانيا ، أخذ على عاتقه مهمة القضاء على الشيوعية . وكان الفاشيون يجاهرون بذلك . ولهذا لم يخفوا خططهم . ولكى يحققوا هدفهم العدوانى لجأوا إلى إبرام جميع أنواع المواثيق و إنشاء التكتلات مثل محور برلين — روما — طوكيو المشهور . كذلك كانت الأحداث التى وقعت قبل الحرب تدل على أن هتلر كان يحشد كل قواه ليشن حرباً على الدولة السوفييتية ، و إن وحدات كبيرة من قواته المسلحة كانت موجودة مع الوحدات المدرعة بالقرب من الحدود السوفييتية .

وتشير الوثائق التى نشرت إلى أنه فى ٣ أبريل عام ١٩٤١ أنذر تشرشل شخصياً عن طريق سفيره فى الاتحاد السوفييتى كريبس ، ستالين

بأن الألمان بدأوا فى تجميع وحداتهم المسلحة توطئة للهجوم على الاتحاد السوفييتى . ومن الجلى أن تشرشل لم يفعل ذلك لأنه كان صديقاً للشعب السوفييتى ، وإنما كان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق أهدافه الاستعمارية الخاصة ، ألا وهى إثارة حرب دامية بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى . وبذلك يقوى مركز الامبراطورية البريطانية . ومهما يكن من أمر ، فإن تشرشل أكّد فى كتاباته القول بأنه سعى إلى « تحذير ستالين ولفت نظره إلى الخطر الذى كان يتهدده » . ولقد كرر تشرشل هذا التحذير فى رسائله المؤرخة ١٨ أبريل والأيام التالية ، ولكن ستالين لم يعبأ بهذه التحذيرات . وأكثر من ذلك ، أن ستالين أمر بعدم التعويل على أية معلومات من هذا النوع حتى لا يُؤدى ذلك إلى نشوب عمليات حربية .

ويجدر بنا الآن أن نؤكد أن معلومات أخرى من هذا القبيل خاصة بخطر قيام الألمان بغزو مسلح للأراضى السوفييتية ، كانت تصل إلينا أيضاً من مصادرنا العسكرية والدبلوماسية . إلاّ أنه نظراً لأن ستالين كان ينظر إلى مثل هذه المعلومات نظرة خاصة متشددة ، فإن إرسال هذه الأنباء كان يقترن دائماً بالخوف كما كانت تستقبل بتحفظ .

ودعونى أذكر لكم مثلاً المعلومات التى أرسلها من برلين الكابتن فوروتنسوف الملحق العسكرى السوفييتى يوم ٦ مايو ١٩٤١ والتى جاء بها : « أبلغ المواطن السوفييتى بوزر ، نائب الملحق البحرى ، أنه سمع

من ضابط ألمانى يعمل بالقيادة الألمانية العليا ، أن ألمانيا تعد العدة لغزو الاتحاد السوفييتى يوم ١٤ مايو عن طريق فنلندا ودول البلطيق ولاتفيا ، وفى الوقت ذاته ستشن غارات جوية مروعة على موسكو ولينينجراد ، كما ستنزل جنود المظلات فى مدن الحدود . »

وفى تقرير بتاريخ ٢٢ مايو ١٩٤١ ، قال كلوبون نائب الملحق العسكرى فى برلين « علمت أن هجوم الجيش الألمانى المسلح حُدّد له يوم ١٥ يونيو ، إلاّ أنه من الجائز أن يبدأ فى الأيام الأولى من شهر يونيو . . . »

وبتاريخ ١٨ يونيو ١٩٤١ جاء فى برقية من سفارتنا بلندن ما يلى : « إن كريبس مقتنع الآن تماماً بألاّ مفر من قيام نزاع مسلح بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى ، وإن هذا النزاع لن يتأخر عن منتصف شهر يونيو . ويرى كريبس أن لدى الألمان حالياً ١٤٧ فرقة (بما فى ذلك وحدات سلاح الطيران) محشودة على الحدود السوفييتية . . . »

ورغم هذه التحذيرات الخطيرة ، لم تُتخذ الخطوات الضرورية لاعداد البلاد إعداداً صحيحاً للدفاع حتى لا تؤخذ على غرة .

هل كنا نملك الوقت والامكانيات لمثل هذه الاستعدادات ؟ نعم . كان لدينا الوقت والامكانيات . فإن صناعتنا كانت قد تقدمت بحيث

كانت تستطيع أن تزود الجيش السوفييتى تزويداً كاملاً بكل ما يحتاج إليه : والدليل على ذلك ، أنه برغم أننا فقدنا خلال الحرب نصف صناعتنا تقريباً ، فضلاً عن المناطق الصناعية ومناطق إنتاج الطعام نتيجة لاحتلال العدو لأوكرانيا وشمال القوقاز وغيرهما من الأجزاء الغربية للبلاد ، فقد ظل الشعب السوفييتى قادراً على تنظيم إنتاج العتاد الحربى فى الأجزاء الشرقية من البلاد ، حيث قام بتركيب الآلات التى نقلت من المناطق الغربية الصناعية ، وبذلك أمكنه أن يزود قواتنا المسلحة بكل ما هو ضرورى لتحطيم العدو .

ولو أن صناعتنا كانت قد عُبئت كما ينبغى وفى الوقت المناسب لتموين جيشنا بالمواد الضرورية ، لكان من المحقق أن تقل خسائرنا ، إلا أن مثل هذه التعبئة لم تبدأ فى الوقت المناسب ، ومن ثم اتضح فى الأيام الأولى من الحرب ، أن جيشنا كان سيىء التسليح . وأننا لم نكن نملك مدفعية أو دبابات أو طائرات كافية لدفع العدو إلى الوراء .

وعلى الرغم من أن العلم والتكنولوجيا السوفييتية قد أنتجتا لنا أنواعاً جيدة من الدبابات والمدافع قبل الحرب ، فإن الانتاج الضخم لجميع هذه القطع لم يكن منظماً ، كما أن استخدام الطرق الحديثة فى صناعة العتاد الحربى لم تتم إلا قبل بدء الحرب مباشرة . وكانت نتيجة ذلك ، أنه ما كاد العدو يغزو الأراضى السوفييتية حتى اتضح أننا لا نملك كميات

كافية لا من الآلات القديمة التى لم تعد تستعمل فى إنتاج العتاد الحربى القديم ، ولا من الآلات الجديدة التى كانت الخطط الموضوعة تقضى بإدخالها فى برنامج التسليح الجديد . وكان الموقف بالنسبة للمدفعية المضادة للطائرات سيئاً بصفة خاصة ، كما أننا لم نضع أية خطة لانتاج الذخيرة المضادة للدبابات . كذلك ثبت أن كثيراً من المناطق المحصنة كانت فى وضع لا يسمح بالدفاع عنها بمجرد أن يبدأ الهجوم عليها ؛ وذلك لأن الجيوش القديمة كانت قد سحبت . ولم تكن هناك أية جيوش جديدة فى متناول اليد بعد .

ولم تكن هذه هى حال الدبابات والمدافع والطائرات فحسب ، إذ عند ما بدأت الحرب لم نكن نملك عدداً كافياً من البنادق لتسليح قواتنا المعبأة . وإنى لأذكر أننى اتصلت تلفونياً من كييف فى تلك الأيام بالرفيق مالينكوف وقلت له : « لقد تطوع الشعب فى الجيش الجديد ؛ وهو يريد سلاحاً ... يجب أن تبادر بإرسال السلاح على الفور . »

وأجاب مالينكوف « ليس فى استطاعتنا أن نرسل لكم أسلحة ، لأننا نرسل جميع ما لدينا من بنادق إلى لينينجراد ، ومن ثم يجب عليكم أن تسلحوا أنفسكم . »

هذا ما كان عليه موقف الجيش .

وليس فى استطاعتنا ان نغفل فى هذا المقام عن الحقيقة التالية مثلاً :
عقب قيام الجيش الهتلرى بغزو الاتحاد السوفييتى كتب كور بونوس الذى كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية (وقد قتل فيما بعد أثناء وجوده بالجبهة) كتب إلى ستالين يقول إن الجيوش الالمانية وصلت إلى نهر باج وانها تهيأ لشن الهجوم ، وإنه من المحتمل أن تقوم بهذا الهجوم فى القريب العاجل . وقد اقترح كور بونوس فى هذا المقام تنظيم دفاع قوى ، وأن يجلو ٣٠٠,٠٠٠ شخص عن مناطق الحدود وإنشاء نقط دفاع عديدة قوية هناك مثل خنادق الجنود ، ومصايد الدبابات ، ... الخ .

ولكن موسكو أجابت على هذه الاقتراحات بأن تنفيذها يعتبر استفزازاً ، وانه ينبغى عدم الإقدام على إتخاذ أية استعدادات دفاعية على الحدود ، حتى لا تتيح للألمان فرصة التذرع بأى سبب للقيام بعمل عسكرى ضدنا . وهكذا لم تُعد حدودنا إعداداً كافياً لصد العدو .

فعندما غزت جيوش الفاشية الأراضى السوفييتية فعلاً ، وبدأت العمليات الحربية ، أصدرت موسكو أمراً بعدم الرد على النيران الألمانية . فلماذا ؟ لأن ستالين رغم هذه الحقائق الواضحة ، كان يظن أن الحرب لم تبدأ فعلاً ، وأن ما حدث لم يكن أكثر من مجرد عمل استفزازى من جانب وحدات غير نظامية فى الجيش الألمانى ، وأن رد فعلنا قد يكون

سبباً يتذرع به الألمان للبدء بالحرب !

والحقيقة التالية معروفة أيضاً . فنى عشية غزو الجيش الهتلرى للاتحاد السوفييتى ، عبر مواطن المانى حدودنا ، وأبلغنا أن الجيوش الألمانية تلقت أمراً بالبدء فى الهجوم على الاتحاد السوفييتى فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٢ يونيو . ولقد أبلغ ذلك إلى ستالين فوراً ، ولكنه تجاهل أيضاً هذا التحذير .

من هذا يتبين لكم ، أن ستالين تجاهل كل شىء : تحذيرات قواد معينين بالجيش ، وأقوال الهاربين من جيش العدو ، بل وشروع العدو نفسه فى العدوان : فهل كان ذلك كله يدل على يقظة رئيس الحزب والدولة فى هذه اللحظة التاريخية الهامة بالذات ؟

وماذا كانت نتائج هذا الاستخفاف وذلك التجاهل للحقائق الواضحة ؟ كانت النتيجة أن العدو استطاع ان يقضى ، خلال الساعات والايام الاولى ، على جزء كبير من قوتنا الجوية ومدفعيتنا وغيرها من العتاد الحربى فى مناطق حدودنا ، كما قتل عدداً كبيراً من أفراد تشكيلاتنا العسكرية ، وأثار الاضطراب فى صفوف زعامتنا العسكرية . وكانت نتيجة ذلك كله عجزنا عن وقف تقدم العدو وتغلغله داخل البلاد .

ولقد كانت النتائج مؤسفة ، وبخاصة فى بداية الحرب ، وعلى أثر قيام

ستالين بقتل كثيرين من القواد ورجال السياسة فيما بين عامى ١٩٣٧ — ١٩٤١ بسبب ريبته واتهاماته الزائفة لهم . ففى خلال تلك السنوات ، كان القمع موجهاً الى كثير من المجاهدين العسكريين إبتداء من قواد الفصائل والأورط حتى شاغلى للراكز العسكرية العليا . كما سجل المجاهدون القدامى الذين كانوا قد اكتسبوا خبرة عسكرية فى اسبانيا والشرق الأقصى .

ولقد أدت أعمال القمع التى وجهت ضد المجاهدين العسكريين على نطاق واسع، الى القضاء على النظام العسكرى، لأن الضباط من جميع الرتب بل وجنود الحزب ومنظمات شباب الكوموسومول كانوا يُدربون على التجسس على رؤسائهم باعتبارهم أعداء سريين !! وكان من الطبيعى أن يؤثر ذلك تأثيراً سلبياً على الموقف العسكرى فى المرحلة الاولى من الحرب. وأنتم تعلمون ولا شك ، أن معظم المجاهدين العسكريين فى بلادنا كانوا يتحلون .بالإخلاص الذى لاتشوبه شائبة للحزب والوطن . ويكفى أن نقول إن المجاهدين العسكريين الذين كتبت لهم الحياة رغم التعذيب القاسى الذى تعرضوا له فى السجون ، أثبتوا فى الأيام الأولى من الحرب أنهم مواطنون حقيقيون ، وقاتلوا ببسالة من أجل مجد الوطن . وإنى لأذكر فى هذا المقام رفاقاً مثل روكوسوفسكى (وهو كما تعلمون قد زُجَّ به فى السجن) وجوربانوف مارلسكوف (وهو عضو فى المؤتمر الحاضر) و بورلاس (وكان قائداً ممتازاً قتل فى الجبهة) وكثيرين غيرهم ، عدا أولئك القواد الآخرين

الذين ماتوا فى المعسكرات والسجون ، ولم يرهم الجيش بعد ذلك !

واقد أدى ذلك كله الى نشوء الموقف الذى كان قائما عند بداية الحرب والذى كان يهدد وطننا تهديداً خطيراً.

ومن الخطأ أن ننسى أنه على أثر الكارثة والهزائم الأولى الفادحة التى حلت بنا فى جبهة القتال ، ظنّ ستالين أن تلك كانت النهاية ! ولهذا قال فى إحدى خطبه التى ألقاها فى تلك الأيام « لقد فقدنا إلى الأبد كل ما خلفه لنا لينين »

و بعد ذلك، و إلى أمد طويل ، لم يدُرِ ستالين فعلاً العمليات الحربية، وكف عن القيام بأى عمل على الإطلاق . ولكنه عاد إلى الزعامة النشطة عندما زاره بعض أعضاء المكتب السياسى وقالوا له إنه أصبح من الضرورى إتخاذ خطوات معينة بلا إبطاء لتحسين الموقف على الجبهة .

من هذا يتبين أن الخطر الذى كان يحاق فوق رأس وطننا فى الفترة الأولى من الحرب كان يُعزى إلى حد كبير إلى الوسائل الخاطئة التى كان ستالين يتبعها فى توجيه الأمة والحزب .

مهما يكن من أمر ، فإننا لن نقصر حديثنا على اللحظة التى بدأت الحرب فيها ، والتى أدت إلى حدوث تصدع خطير فى جيشنا سبّب لنا خسائر فادحة ، فحتى بعد بدء الحرب ، كان إضطراب ستالين العصبى

وتدخله الفعلى فى العمليات الحربية، السبب فى تكبيد جيشنا خسائر فادحة.

ولقد كان ستالين أبعد ما يكون عن إدراك حقيقة الموقف فى جبهة القتال . وكان ذلك أمراً طبيعياً ، لأنه لم يقم خلال الحرب الوطنية بزيارة أى قطاع من الجبهة أو أية مدينة محررة اللهم إلا تلك الرحلة القصيرة التى قام بها على طريق موزهايسك ، حينما كان الموقف وطيداً على الجبهة . وقد كتبت عن هذه الرحلة القصيرة كتبٌ ومقالات كثيرة مشحونة بمغالطات من شتى الأنواع ، فضلاً عن كثير من الزخرف . وعقب ذلك . بدأ ستالين يتدخل فى العمليات الحربية ويصدر الأوامر بدون أى أعتبار لحقيقة الموقف فى أى قطاع من الجبهة ، الأمر الذى ترتب عليه وقوع خسائر فادحة فى الأرواح .

وسأسمح لنفسى فى هذا المجال ، بأن أذكر حقيقة واحدة تصور لكم كيف كان ستالين يدير العمليات على الجبهة . وبيننا الان ، وفى هذا المؤتمر ، المارشال باجريان الذى كان رئيساً للعمليات فى مجلس قيادة الجبهة الجنوبية الغربية ، وهو لاشك يستطيع أن يؤيد لكم ماسأقوله .

أقول عندما واجه جيشنا ذلك الوقت الخطير الذى نشأ فى منطقة خاراكوف سنة ١٩٤٢ ، قررنا — وعن صواب — أن نتخلى عن عملية تطويق خاراكوف لأن ما كان يحدث فى ذلك الحين كان خليقاً بأن يهدد

جيشنا بنتائج خطيرة جداً لو أن هذه العملية استمرت .

وأبلغنا ذلك لستالين ، وقلنا إن الموقف يتطلب إجراء تغييرات فى خطط العمليات حتى يمكن منع العـدو من القضاء على جزء كبير من جيشنا .

ولـكن ستالين جانب حسن الادراك ورفض اقتراحنا ، وأصدر أمراً بالاستمرار فى العملية التى كانت تهدف إلى تطويق خاراكوف على الرغم من أن كثيراً من تجمعات الجيش كانت هى نفسها مهددة بالتطويق والإبادة .

واتصلت بنا سيليفسكى تلفونياً وقلت له متوسلاً :

خذ خريطة يا الـكسندر ميخايلوفتش (ويسعدنى أنه موجود هنا الآن) واطلع الرفيق ستالين على الموقف الذى نشأ » ... فقد كان ستالين يرسم العمليات الحربية على كرة ... نعم أيها الرفيق ، كان ستالين يحدد خطوط الجبهة على كرة ... ولذلك لقد قلت للرفيق فاسيليفسكى «وضح له الموقف على خريطة . فنحن لانستطيع أن نستمر فى تنفيذ الخطة الموضوعة فى الموقف الحاضر . ولا بدّ من تغيير القرار القديم لـكى نخدم قضية بلادنا » .

فأجاب فاسيليفسكى قائلاً إن ستالين درس هذه المشكلة فعلاً وإنه ،

أى فاسيليفسكى لن يستطيع أن يقابل ستالين مرة أخرى لبحث هذا الموضوع ، لأن ستالين يرفض الاستماع لأية مناقشة تتعلق بموضوع هذه العملية !

وعلى أثر إنتهاء حديثى مع فاسيليفسكى ، اتصلت تليفونياً بستالين فى منزله ، ولـكن ستالين لم يجب على التليفون . و إنما أجاب مالينكوف ! وقلت للرفيق مالينـكوف إننى أتصل به من الجبهة ، و إننى أريد أن أتحدث إلى ستالين شخصيـاً . وأبلغنى ستالين عن طريق مالينـكوف أننى يجب أن أتحدث إلى مالينـكوف ، فقلت للأخير إننى أريد أن أبلغ ستالين شخصياً عن الموقف الخطير الذى نشأ أمامنا فى الجبهة ، ولـكن ستالين لم يجد من المريح له أن يلتقط سماعة التليفون . وقرر مرة أخرى أنه يجب أن أتحدث إليه عن طريق مالينـكوف رغم أنه لم يكن يبعد عن التليفون إلاّ خطوات قليلة فقط !! .

وبعد أن « أصغى » ستالين إلى استغاثتنا على هذا النحو ، قال « اتركوا كل شىء على ماهو عليه ! »

فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ كانت النتيجة أسوأ مماتوقعنا . . . فقد أحاط الألمان بتجمعات جيشنا مما أدى إلى فقد مئات الألوف من جنودنا . تلك هى « عبقرية » ستالين ! ، وهذا هو ما كلفتنا إياه هذه العبقرية !

وفى إحدى المناسبات بعد الحرب ، وأثناء مقابلة بين ستالين وأعضاء المكتب السياسى ، قال إيفانوفتش ميكويان إنه لاريب أن خرشتيشيف كان على حق عندما اتصل بستالين تليفونياً بشأن عملية خاراكوف ، وإنه من سوء الحظ أن إقتراحه لم يُقبل .

آه ، لو رأيتم غضب ستالين وقتذاك ! لقد جن جنونه ، إذ كيف يمكن أن يقال إنه ، أى ستالين ، لم يكن على صواب ؟ ! وهو قائد « عبقرى » ؟ والعبقرى لا يمكن إلاّ أن يكون على صواب دائماً ! ! إن كل شخص معرض لإرتكاب الخطأ ولكن ستالين كان يؤمن بأنه لم يخطىء أبداً . وأنه على صواب دائماً . . . ومن ثم لم يعترف لأحد أبداً بأنه إرتكب أى خطأ كبيراً كان أم صغيراً رغم أنه إرتكب أخطاء ليست قليلة من الناحيتين النظرية والعملية . ويبدو أننا سنضطر بعد إرفضاض المؤتمر إلى إعادة دراسة كثير من العمليات العسكرية التى دارت أثناء الحرب لنعرف حقيقتها .

وهكذا كلفنا التكتيك الذى أصر ستالين على اتباعه دون معرفة لخلاصة إدارة عمليات المعركة كثيراً من الدم إلى أن نجحنا فى وقف العدو وإنقلبنا إلى الهجوم .

إن العسكريين يعلمون أنه فى نهاية عام ١٩٤١ ، أمر ستالين بالمضى فى الهجوم المواجه والإستيلاء على القرى الواحدة بعد الأخرى بدلا من القيام بمناورات

كبرى للهجوم على جناحى جيش العدو ولإقتحام مؤخرته . ولقد أصر ستالين على اتباع هذه الخطة ، مما كلفنا الكثير من الخسائر الفادحة ؛ لولا أن نجح قوادنا الكبار الذين ألقى عبء إدارة الحرب كلها على أكتافهم ، فى تغيير الموقف والانتقال إلى مرحلة عمليات المناورات المرنة التى أدت إلى حدوث تغييرات هامة لمصلحتنا فى الجبهة .

وإنه لمن العار أن نقرر أنه على أثر تحقيق النصر العظيم لنا على العدو ، ذلك النصر الذى كلفنا الشىء الكثير ، عمد ستالين إلى تجريد كثير من القواد الذى ساهموا فى تحقيق النصر على العدو من رتبهم، ذلك أن ستالين كان يريد ألاّ ينسب نجاح عمليات القتال إلى أى شخص سواه !

وأضرب لكم مثلاً بالرفيق زوكوف . . . فقد كان ستالين يحرص دائماً على أن يعرف مدى كفاءته كقائد عسكرى ، وكنت كلما سألنى عن رأيى فيه ، أقول « إننى أعرف زوكوف منذ أمد طويل ، وهوجنرال طيب وقائد عسكرى حسن » .

ولكن ستالين راح بعد الحرب يردد شتى أنواع السخافات عن زوكوف . ومن بين هذه السخافات قوله لى « لقد امتدحت زوكوف ، ولكنه لا يستحق هذا المديح . فقد سمعت أن زوكوف كان يتصرف على النحو التالى قبل كل عملية حربية فى الجبهة . إعتاد أن يلتقط حفنة من التراب

يشمها ثم يقول « فى استطاعتنا ان نبدأ الهجوم »؛ أو ؛ « ليس فى الإمكان تنفيذ الخطة المرسومة » ... ولقد قلت له وقتذاك « أيها الرفيق ستالين ، لست أدرى من الذى اختلق هذه الفرية الـكاذبة ؟ »

ومن الجائز أن ستالين نفسه هو الذى اختلق هذه الفرية بقصد التهوين من الدور الذى لعبه المارشال زوكوف ، و بقصد النيل من مواهبه العسكرية .

واذكر لـكم فى هذا الصدد أن ستالين كان يبذل قصارى الجهد لزيادة شعبيته باعتباره قائداً عظيماً ، فقد حاول بمختلف الطرق والوسائل أن يُدخل فى أذهان الشعب أن جميع الانتصارات التى حققها الشعب السوفييتى خلال الحرب الوطنية العظمى تُعزى إلى شجاعة ستالين وبطولته وعبقريته ، ولا تُعزى إلى أحد غيره ، شأنه فى ذلك شأن كوزما كرايوسكوف (وهو قوقازى ، مشهور قام بأعمال كثيرة من أعمال البطولة ضد الألمان) الذى زعم أنه ألبس ثوباً واحداً لسبعة أشخاص فى وقت واحد !!

و بهذه النظرة ، دعونا نستعرض مثلاً أفلامنا الحربية والتاريخية ومؤلفاتنا الأدبية ... إن مثل هذا الاستعراض خليق بأن يجعلنا نشمئز . فان الغرض الحقيقى من هذه الأفلام ، وتلك الـكتب ، لم يكن سوى نشر أسطورة تمجيد ستالين كعبقرى عسكرى . وخذوا مثلاً فيلم « سقوط

برلين » ! فى هذا الفيلم يعمل ستالين وحده ... انه يصدر الاوامر فى قاعة لا يوجد بها سوى عدد كبير من المقاعد الشاغرة . ولا يقترب منه الا رجل واحد فقط ، يبلغه أمراً — هذا الرجل هو بوسكريبا يشيف حامل درعه المخلص (سكرتيره الخاص) !

فأين كانت القيادة العامة ؟ وأين كان المكتب السياسى ؟ وأين كانت الحكومة ؟ ماذا يفعل كل هؤلاء ، وفيم كانوا منهمكين ؟ ليس فى الفيلم كله أى شىء عنهم ، فستالين يعمل نيابة عن كل شخص .. ولا يتشاور مع أحد ، ولا يطلب النصح من أحد . وهكذا أبدى كل شىء للشعب على هذا الضوء الكاذب . لماذا ؟ لإحاطة ستالين بهالة من المجد بعكس ما تقوله الحقائق ، و بعكس ما يقول الواقع التاريخى .

وهنا يواجهنا السؤال التالى : « وأين كان الرجال العسكريون الذين استقر عبء الحرب على أكتافهم ؟ انهم لم يظهروا فى الفيلم ، لأن وجود ستالين خليق ألا يتيح لهم مجالاً !

دعونى اقول لكم إن ستالين لم يكن الشخص الذى حقق النصر فى الحرب الوطنية الكبرى ، و إنما الذى حققه هو الحزب بشكله الجماعى ، والحكومة السوفييتية ، وجيشنا الباسل بقادته الموهوبين وجنوده الشجعان .

إن أعضاء اللجنة المركزية ، والوزراء ، وزعماءنا الاقتصاديين ،

وزعماء الثقافة السوفييتيه ، ومديري منظمات السوفييت . والمهندسين والفنيين ... كل شخص من هؤلاء بذل فى ميدان عمله قصارى جهده لتأمين النصر ودحر العدو .

كذلك أبدت الطبقة الكادحة العاملة بطولة نادرة . ولا شك فى ان جميع طبقتنا العاملة ، والفلاحين الذين يعملون فى المزارع الجماعية ، ورجال الفكر السوفييتيين ، يستحقون التمجيد ، لأنهم استطاعوا ، تحت إشراف وزعامة منظمى الحزب ، أن يتغلبوا على مشاق الحرب ، ووهبوا كل قواهم لمبدأ الدفاع عن أرض الوطن .

كذلك قامت نساؤنا السوفييت بأعمال عظيمة باسلة أثناء الحرب ، فقد حملن على ظهورهن مهمة ثقيلة هى الإنتاج فى المصانع ، وفى المزارع الجماعية، وفى مختلف المجالات الإقتصادية، والثقافية ، وهناك كثيرات ساهمن بشكل مباشر فى الحرب الوطنية العظمى فى جبهات القتال ، كما ساهم شبابنا الباسل بأعماله العظيمة سواء فى الجبهة أو فى الداخل ، للدفاع عن الوطن السوفييتى وفى القضاء على العدو .

ولقد لعب حزبنا الشيوعى ، وقوات الإتحاد السوفييتى المسلحة ، وعشرات الملايين من الشعب السوفييتى الذين ربّاهم الحزب ، الدور الرئيسى لتحقيق النصر فى هذه الحرب . ومن ثم ، فإنهم جميعاً يستحقون الثناء والشكر ...

أيها الرفاق : دعونا نستعرض بضع حقائق أخرى ... إن الاتحاد السوفييتي يُعتبر بحق أنموذجاً للدولة الوطنية الجماعية .. فقد استطعنا أن نحقق عملياً الأخوّة والصداقة بين جميع الشعوب التي تستوطن وطننا العظيم .

أما الأعمال التي أوعز بها ستالين، والتي تُعتبر خرقاً صارخاً لمبادىء لينين الأساسية عن السياسة الوطنية للدولة السوفييتية ، فقد كانت مرعبة حقاً .. وأقصد بذلك الترحيل الجماعي لشعوب بأسرها من وطنها الأصلي بما في ذلك جميع الشيوعيين ومنظمات شباب الكوموسومول بلا استثناء . فإن هذا الترحيل الجماعي لم يكن يقتضيه أي أعتبارى عسكرى على الاطلاق .

ومن ثم ، ففي نهاية عام ١٩٤٣ ، عندما حدث تصدّع دائم في جبهات الحرب الوطنية الكبرى لمصلحة الاتحاد السوفييتي ، اتخذ قرار بترحيل جميع الكاراشائيين من الاراضي التي كانوا يعيشون بها ونُفذ هذا القرار على الفور . وفي الفترة نفسها ، أي في نهاية شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ ، لقي سكان جمهورية كالمايك التي كانت تحكم حكماً ذاتياً ، المصير نفسه ... وفي شهر مارس سنة ١٩٤٤ رُحّل جميع سكان شش وانجويشن ، واختفت من الوجود جمهوريتا شش — انجويشن اللتان كانتا تُحكمان حكماً ذاتياً. وفي شهر أبريل سنة ١٩٤٤ رُحّل جميع البلكاريين إلى أماكن سحيقة

بعيدة عن أرض جمهورية كايارداينوز بالكار المستقلة ذاتياً ، وأعيد تسمية الجمهورية ذاتها ، فأطلق عليها اسم « جمهورية كابارداينان » للمستقلة استقلالاً ذاتياً . أما الاوكرانيون ، فقد استطاعوا تجنب هذا المصير لكثرة عددهم ، ولعدم وجود مكان يمكن أن يُرحّلوا إليه والاّ لرحلهم ستالين أيضاً !!

ولست فى حاجة إلى القول بأنه مامن شخص يؤمن بمبادىء ماركس ولينين ، بل ما من شخص يتمتع بحسن الإدراك ، يستطيع أن يفهم كيف تمكن إلقاء مسئولية النشاط المعادى على شعوب بأسرها بمافيها النساء والأطفال والعجزة والشيوعيون وشباب منظمات الكوموسومول ، وإستخدام القمع الجماعى ضدهم . وتعريضهم للشقاء والعذاب بسبب أعمال عدائية إرتكبها أفراد أو جماعات من الافراد !

أيها الرفاق :

عندما وضعت الحرب الوطنية أوزارها ، أيدّ الشعب السوفييتى بفخر الانتصارات الباهرة التى كسبها بتضحيات عظيمة وجهود جبارة . ولقد مرت بالبلاد فترة من الحماس السياسى ، وخرج الحزب من الحرب أكثر وحدة ، لأن تجارب الحرب شدّت عزائم المجاهدين وما كان لأحد فى مثل هذه الأحوال أن يتصور مجرد التفكير فى تدبير مؤامرة داخل الحزب .

ومع ذلك ، فقد شهدت هذه المرحلة بالذات « قضية لينتجراد » المزعومة ، التى كانت — مثل مثيلاتها — ملفقة وزائفة . وعلى الرغم من ذلك ، فإن كثيراً من أولئك الذين ذهبوا ضحيتها كانوا أبرياء ، وأخص منهم بالذكر فوزنسنسكى ، وكازنتسوف ، وروديونوف ، بوبكوف وآخرين .

فكما هو معروف ، كان فوزنسنسكى وكازنشوف من الزعماء البارزين الموهوبين . كما كانا مقربين إلى ستالين ، ويكفى أن نذكر أن ستالين عيّن فوزنسنسكى نائباً أول لرئيس مجلس الوزراء ، أما كازنشوف ، فقد انتخب سكرتيراً للجنة المركزية . ولا شك أن مجرد علمنا بأن ستالين عهد إلى كازنشوف بالاشراف على جميع مصالح الأمن فى الدولة ، يدلنا على مدى الثقة التى كان يتمتع بها .

فكيف اتفق إذن أن وُصم هؤلاء الأشخاص بأنهم أعداء للشعب ، ثم أعدموا بعد ذلك ؟

إن الحقائق تثبت أن « قضية لينتجراد » كانت بدورها نتيجة للاستبداد الذى كان ستالين يمارسه ضد أعضاء الحزب المجاهدين .

ولو أن لوائح اللجنة المركزية للحزب ، واللجنة المركزية للمكتب السياسى ، كانت موضع احترام ، لكان حتماً أن تفحص القضايا التى من هذا القبيل بمعرفة هذه الهيئات تنفيذاً لنظم الحزب ، ولأمكن الوصول

إلى جميع الحقائق ، ولكان من المحتمل إلاّ تتكرر مثل هذه القضايا مرة أخرى .

ودعونى أذكر لكم أن الأمر أصبح أكثر تعقيداً بعد انتهاء الحرب . فقد أصيب ستالين بمزيد من التقلب ، والاضطراب العصبى ، والوحشية ، والارتياب ، كما بلغ حبه للتعذيب مدى لا يمكن تصديقه . ومن ثم ، فقد أصبح كثير من العاملين بالحزب أعداء فى نظره . و بعد انتهاء الحرب ، ازداد ستالين اعتزالاً للجماعة ، وكان كل شىء يُبتّ فيه بمعرفته وحده دون أى أعتبار لأىّ شخص أو أى شىء .

ومن المؤسف أن بيريا المحرض الدنىء والعدو الحقير الذى قتل آلافاً من الشيوعيين ومن أفراد الشعب السوفييتى المخلصين ، استغلّ الشك الذى استولى على نفس ستالين بذكاء وحذق . ذلك أن بزوغ نجم فوزنسنسكى وكازنشوف ، أفزع بريا ، الذى ثبت أنه هو الذى «اقترح» على ستالين أن يقوم هو ومرشدوه الذين يثق بهم بتلفيق أدلة على شكل بلاغات وخطابات مجهولة ، و إشاعات وأحاديث مختلفة تبرر إدانتهما .

ولقد حققت اللجنة المركزية للحزب «قضية لينتجراد» المزعومة هذه . وردت الإعتبار لأولئك الأبرياء الذين أدينوا ظلماً وعدواناً ، كما أضفى التبجيل على منظمة الحزب المجيدة فى لينتجراد . أما أباكيوموف والآخرون

الذين لفقوا هذه القضية ، فقد قدموا للمحاكمة . وتمت محاكمتهم في لينينجراد ونالوا مايستحقونه من عقاب .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : لماذا لم نكتشف حقيقة هذه القضية إلا الآن فقط ؟ ولماذا لم نفعل شيئا من قبل ، حينما كان ستالين لا يزال على قيد الحياة لتجنب إزهاق الارواح البريئة ! . . . السبب فى ذلك هو أن ستالين شخصيا هو الذى أشرف على « قضية لينينجراد » ولم يكن أغلب أعضاء المكتب السياسى يعلمون فى ذلك الحين بجميع الظروف التى إكتنفت هذه الشئون ؛ومن ثم لم يكن فى إستطاعتهم أن يتدخلوا .

فعندما تلقى ستالين الوثائق الملفقة من بريا وأباكيوموف ، لم يفحص هذه الوثائق ، وإنما أمر باجراء تحقيق فى « قضية » فوزنسنسكى وكازنتسوف. وبهذا بُتّ فى مصيرهما . وعلى هذا النحو أعطى ستالين توجيهات مشابهة فى قضية منظمة « منجريلاين » الوطنية التى إختلقها البوليس السرى فى جورجيا . فكما هو معروف لكم ، أتخذت اللجنة المركزية والحزب الشيوعى بالاتحاد السوفييتى قرارات بشأن هذه القضية فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ وفى شهر مارس سنة ١٩٥٢ . ولقد إتخذت هذه القرارات دون أن تجرى أية مشاورات مع المكتب السياسى . والواقع أن ستالين نفسه هو الذى أملى هذه القرارات . وكانت توجيهاته عبارة عن إتهامات خطيرة

موجهة لـكثير من الشيوعيين المخلصين ، ثبت أنها زائفة لأنها استندت إلى وثائق ملفقة تزعم وجود منظمة فى جورجيا هدفها القضاء على الحكم السوفييتى فى تلك الجمهورية بمساعدة الدول الاستعمارية !

و بناء على ذلك ، أعتقل كثير من رجال الحزب المسئولين والعمال السوفييت فى جورجيا ، ووجهت فرية التآمر الـكاذبة ضد منظمة الحزب فى جورجيا .

حقيقة كانت هناك ، فى أوقات معينة ، ظواهر تدل على وجود نزعات بورجوازية محلية فى جورجيا ، كما هى الحال فى جمهوريات أخرى عديدة . وهنـاك يجدر بنا أن نتساءل : هل كان من المحتمل أن تنشأ فى الوقت الذى أتخذت فيه قرارات كالمشار إليها آنفاً ، ميولٌ بورجوازية ؟ وأن تنمو مثـل هذه الميول إلى الدرجة التى تهدد بانفصال جورجيا عن الإتحاد السوفييتى لـكى ينضم لتركيا ؟ !

بالطبع ، هذا هراء ... فمن المستحيل أن نتصور كيف يمكن أن تدور مثل هذه الأوهام بخاطر أى شخص . فإن كل إنسان يعلم كيف نمت جورجيا اقتصادياً وثقافياً تحت الحـكم السوفييتى .

واست فى حاجة إلى أن أذكر لـكم أنه كلما تقدم الاقتصاد وتطورت الثقافة ، نما الوعى الاشتراكى بين جماهير العمال فى جورجيا ، ذلك لأن

المصــدر الذى تستمد منه البورجوازية قوتها ، لايلبث أن يختفى و يتبدد فى مثل هذه الظروف .

ومع تطور جورجيا وتقدمها ، لم تظهر أى ميول بورجوازية ... ومع ذلك ، سقط ألوف الأشخاص الأبرياء ضحايا الاستبداد وخرق القانون من جانب البوليس السرى تحت زعامة ستالين « العبقرية » ! ستالين الذى كان يحلو لشعب جورجيا أن يطلق عليه اسم « الابن العظيم لشعب جورجيا » !

ولقد ظهر استبداد ستالين برأيه لا فى القرارات الخاصة بالحياة الداخلية للبلاد فحسب و إنما أيضاً فى العلاقات الدولية للاتحاد السوفييتى .

فمثلا درس المؤتمر الذى عقدته اللجنة المركزية للحزب فى شهر يوليو الماضى الأسباب التى أدت إلى نشوء النزاع مع يوغوسلافيا . واكتشفت اللجنة أن الدور الذى لعبه ستالين فى هذا المجال كان مخزياً ، فان « قضية يوغوسلافيا » لم تــكن تشتمل على أية مشــكلات تستعصى على الحل عن طريق المناقشات الحزبية . كما أنه لم تــكن ثمة مايدعو إلى نشوء مثل هذه « المشــكلة » ؛ إذ كان من الممكن جداً الحيلولة دون تصدع العلاقات مع يوغوسلافيا . غير أن ذلك لا يعنى أن الزعماء اليوغوسلافيين لم يرتــكبوا أخطاء أو لم تــكن لهم عيوبهم الخاصة ، ولــكن ستالين عمد إلى تضخيم

هذه الأخطاء والنقائص بشكل مخيف ، مما أدى إلى قطع العلاقات مع يوغوسلافيا الدولة الصديقة .

وإننى لأذكر الأيام الأولى التى نشأ النزاع فيها بين الاتحاد السوفييتى ويوغوسلافيا ، وكيف أثير هذا النزاع بطريقة مفتعلة . وأذكر فى هذا الصدد أننى دُعيت لزيارة ستالين ذات مرة ، عقب عودتى من كييف إلى موسكو ، وأن ستالين أشار أثناء هذه الزيارة إلى خطاب كان قد أرسل أخيراً إلى تيتو وسألنى « هل قرأت هذه الرسالة ؟ »

ولم ينتظر إجابتى على سؤاله وراح يقول « سوف أحرك خنصرى — وبعدئذ لن يكون هناك شخص اسمه تيتو . . . سوف يسقط » .

ولقد دفعنا أيها الرفاق ثمناً باهظاً « لتحريك هذا الخنصر » ! ولاشك أن ماقاله ستالين فى هذا الشأن يبين لنا مدى جنون العظمة الذى كان ستالين ضحيته . . . فقد كان يسلك مثل هذا المسلك دائماً : « سأهز خنصرى — وبعدئذ لن يكون هناك كوسيور » ! « وسأهز خنصرى مرة أخرى . . . وعندئذ لن يكون هناك بوشتيشيف وشوبار ! » « وسأهز خنصرى مرة أخرى — فيختفى فوزنسنسكى وكازنتسوف ، وكثيرون غيرهم » .

ولكن « خنصر » ستالين لم يفلح فى إسقاط تيتو . . . بل إن تحريك خنصره وكل عضو متحرك آخر من أعضاء جسمه لم يؤد إلى إسقاط

تيتو . . . لماذا ؟ . . . لأن تيتو كان متمتعاً بتأييد دولة وشعب خاضا معركة مريرة فى سبيل التحرر والاستقلال ، ومن ثم أيد الشعب زعماءه أثناء النزاع الذى نشأ بيننا و بين الرفاق اليوغوسلافيين .

أيها الرفاق :

ها أنتم ترون النتائج التى أدى إليها جنون ستالين بالعظمة ؛ ذلك الجنون الذى جعله يعجز عن إدراك الحقيقة بسبب الشكوك التى ساورت نفسه لا فى علاقته بالأفراد داخل الاتحاد السوفييتى فحسب ، و إنما أيضاً فى علاقته بأحزاب وشعوب برمتها .

لقد درسنا قضية يوغوسلافيا ، بعناية ، وعثرنا على حل ملائم وافق عليه شعبا الاتحاد السوفييتى و يوغوسلافيا ، وأيدته الطبقات العاملة فى جميع دول الديمقراطيات الشعبية ، وشتى الأوساط الإنسانية التقدمية . و بذلك صُححت العلاقات الشاذة مع يوغوسلافيا بطريقة تخدم مصالح المعسكر الاشتراكى كله ، وتؤدى إلى دعم السلام فى العالم كله .

والآن دعونا نتذكر « قضية الأطباء المتآمرين » ! المزعومة . . . الواقع أنه لم تكن هناك « قضية » ما . . . فكل ما أقيمت عليه القضية من أسانيد ، هو تصريح الدكتورة تيما سوك التى كان من المحتمل أنها تأثرت أو تلقت أمراً من شخص ما (ومن المحتمل أنها كانت تتعاون

بصفة غير رسمية مع إدارة البوليس السرى) بأن تكتب رسالة لستالين تزعم فيها أن الأطباء كانوا يطبقون وسائل غير صحيحة فى علاجه .

وهكذا كان هذا الخطاب وحده هو الدليل الذى جعل ستالين يستنتج وجود أطباء متآمرين فى الإتحاد السوفييتى . ومن ثم أصدر أوامره بالقبض على جماعة من أطباء الإتحاد السوفييتى الاخصائيين البارزين ، وأصدر بنفسه التوجيهات اللازمة لتحقيق الموضوع وطريقة استجواب الأشخاص المقبوض عليهم . كذلك قال ستالين نفسه أن الأكاديمى فينو جرادوفه يجب أن يكبل بالأغلال ، وأن شخصاً آخر يجب أن يضرب . ومن بين الحاضرين فى هذا المؤتمر ، وزير أمن الدولة السابق الرفيق إجناتييف الذى قال ستالين له بقسوة « إذا لم تحصل على اعترافات من الأطباء ، فستفصل رأسك عن عنقك » .

كذلك استدعى ستالين شخصياً القاضى المحقق ، وأصدر إليه تعليماته ، وشرح له الوسائل التى يجب أن تتبع فى التحقيق . وكانت هذه الوسائل بسيطة : إضرب ، واضرب ، ثم اضرب مرة أخرى . .

و بعد القبض على الأطباء بفترة قصيرة تلقينا ، نحن أعضاء المكتب السياسى ، عدة محاضر تشمل على « اعترافات » الأطباء بجرائمهم . و بعد توزيع هذه المحاضر علينا ، قال لنا ستالين « إنكم عميان كالقطط الصغيرة .

ماذا كان عساه يحدث لولاى ؟ . . . سوف تضيع البلاد لأنكم لا تعرفون كيف تميزون الاعداء ! ! »

ولقد عرضت القضيه بشكل يعجز معه أى شخص عن معرفة الحقائق التى يُبنى عليها التحقيق ، كما كان من المستحيل الاتصال بأولئك الذين « اعترفوا » بجرائمهم لمعرفة الحقائق منهم . ولكننا كنا نشعر بأن تلك القضية تكتنفها الشكوك ، ذلك إننا كنا نعرف بعض هؤلاء الرجال شخصياً ؛ فهم قد تولوا علاجنا فى بعض الأحيان . . . وعندما درسنا هذه « القضية » بعد موت ستالين ، تبين لنا أنها كانت ملفقة من الألف إلى الياء .

إن هذه « القضية » الشائنة ، كانت من تلفيق ستالين . ومن حسن حظ الأطباء أن ستالين لم يكن يملك الوقت الذى يمكنه من إنهاء القضية على النحو الذى كان يرتأيه . ولهذا السبب ما زال هؤلاء الأطباء على قيد الحياة . . . ولقد رُدّ إليهم جميعاً اعتبارهم ؛ وهم يعملون فى نفس الأماكن التى كانوا يعملون بها من قبل ، ويعالجون كبار الأفراد بما فيهم رجال الحكومة ؛ كما أنهم يتمتعون بثقتنا الكاملة . ويؤدون واجبهم بأمانة مثلما كانوا يفعلون من قبل .

لقد لعب « بيريا » عدو حزبنا اللدود ، وعميل المخابرات الأجنبية ، الذى استحوذ على ثقة ستالين ، دوراً سافلاً دنيئاً فى تلفيق مختلف القضايا

القذرة الشائنة . فما هى الطريقة التى كان هذا الرجل يستطيع بواسطتها أن يفوز بمنصب فى الحزب والدولة حتى أصبح النائب الأول لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفييتى وعضواً باللجنة المركزية للمكتب السياسى ؟ لقد تأيد الآن أن هذا الأفاق ارتقى السلم الحكومى على أشلاء عدد لا يحصى من الضحايا .

والآن ، دعونا نتساءل : هل كانت هناك أية علامات توحى بأن بيريا كان عدواً للحزب ؟ نعم . . كان هناك ما يوحى بذلك . ففى عام ١٩٣٧، ذكر قوميسير الشعب السابق للمحافظة على صحة الشعب ، كاميفسكى ، فى أحد مؤتمرات اللجنة المركزية أن بيريا كان يعمل لحساب مخابرات « موسافات » المعادية ، ولكن مؤتمر اللجنة المركزية لم يستطيع أن يحصل على مزيد من المعلومات فى هذا الشأن، إذ ألقى القبض على كامينسكى وأعدم رمياً بالرصاص على أثر إنتهاء انعقاد المؤتمر مباشرة ! . . فهل حقق ستالين أقوال كامينسكى ؟ كلا . لماذا ؟ لأن ستالين كان يصدق بيريا و يثق فيه ولا يناقشه . . . ولا شك أنكم تعرفون أنه ما من شخص كان يستطيع أن ينتقد شخصاً يثق فيه ستالين ؛ لأن انتقاد مثل هذا الشخص معناه معارضة ستالين . . . ويا لهول مصير مَن يفعل ذلك !

وكانت هناك أدلة أخرى أيضاً . ودعونى أذكر لكم مثلاً الإقرار الذى قدمه الرفيق سنجوف فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب . فقد قال سنجوف

(الذى رُدّ إليه اعتباره منذ أمد قصير بعد أن قضى ١٧ سنة فى السجن) :

« فيما يتعلق باقتراح رد اعتبار عضو اللجنة المركزية السابق كارتفليشتيلى — لافرينتيف ، أذكر أننى قدمت لمندوب لجنة أمن الدولة تفصيلاً وافياً عن الدور الذى لعبه بيريا فى تلفيق قضية كارتفليشتيلى ، كما شرحت له الدوافع الإجرامية التى كان بيريا ينقاد لها . »

وإننى لأرى أيضاً أنه لا مفر من ذكر حقيقة هامة تتعلق بهذه القضية وينبغى تبليغها للجنة المركزية . . . . هذه الحقيقة الهامة هى مايلى :

فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٣١ ، فى خلال دور انعقاد المكتب التنظيمى للجنة المركزية للحزب ، قدم كارتفيلشفيلى سكرتير عام لجنة كراى فى « القوقاز الأوسط » تقريراً استمع إليه جميع أعضاء لجنة كراى الذين لم يبق منهم أحد سواى على قيد الحياة . وإننى لأذكر أن ستالين أشار أثناء هذا الاجتماع إلى ضرورة تشكيل لجنة كراى (القوقاز الأوسط) على هذا النحو : يعين كارتفيلشتيلى سكرتيراً أول ، و بيريا سكرتيراً ثانياً (كانت تلك هى أول مرة فى تاريخ الحزب يذكر فيه اسم بيريا باعتباره مرشحاً لأحد مناصب الحزب) . وعندئذ أجاب كارتفيلشتيلى بأنه يعرف بيريا حق المعرفة ، وأنه لهذا السبب يرفض أن يعمل معه . وعندئذ اقترح ستالين ترك الباب مفتوحاً ، على أن تُحل المشكلة فيما بعد ، وخلال انعقاد هذه الدورة . . . ثم صدر بعد يومين قرار يقضى بأن يتلقى بيريا تريد

الحزب « وأن ينقل كارتفيلشفيلى من منطقة « القوقاز الأوسط » .

هذه هى الحقيقة الهامة التى أردت أن أذكرها لكم · ولا شك أن الرفيقين ميكويان وكاجانوفتش اللذين حضرا هذه الدورة يستطيعان أن يؤيدا هذه الحقيقة .

هذا إلى أن طبيعة العلاقات الغير الودية بين كارتفيلتشفيلى و بيريا كانت معروفة على نطاق واسع . ويرجع سوء هذه العلاقات إلى الوقت الذى كان الرفيق سيرجو* يلعب فيه دوراً نشطاً فى منطقة «القوقاز الأوسط» إذ كان كارتفيلشتيلى هو المساعد المقرب لسيرجو . ويبدو أن العلاقات الغيرالودية بين الرجلين ، حملت بيريا على أن يلفق قضية ضد كارتفيلشتيلى ، للكيد له والإنتقام منه . وأبرز ما فى هذه القضية أن كارتفيلشتيلى إتهمه بالإقدام على عمل إرهابى ضد بيريا !

وعلى الرغم من أن عريضة الإتهام فى قضية بيريا قد اشتملت على سجل واضح لجرائمه ، إلا أنه يجب أن نتذكر بضع حقائق معينة ، لأن الإطلاع على عريضة الاتهام لم يُتح لكثير من المندوبين . وأود هنا أن أشير على وجه الخصوص إلى محاولة بيريا الإجرامية للتنصل من مسئوليته تلفيق قضايا كدروف ، وجولوبيف ، والسيدة باتيورنيا التى تبنت جولوبيف ... فقد حاول هؤلاء الأشخاص جميعاً إبلاغ اللجنة المركزية عن

---

* تعليق المترجم : « سيرجو » هو الإسم المستعار لاورد زونيكيدزه .

نشاط بيريا المعادى للدولة وخيانته ، ولـكنهم أعدموا رمياً بالرصاص بغير أية محاكمة . ولم يصدر الحـكم ضدّهم إلاّ بعد تنفيذ الإعدام ! !

وإليكم ما كتب الشيوعى القديم ، الرفيق كيدروف ، للجنة المركزية عن طريق الرفيق أدربيف (الذى كان سكرتيراً للجنـة المركزية وقتذاك) .

« إننى ألجأ إليك طالباً المساعدة ... وأنا موجود فى زنزانة معتمة بسجن ليفورفورسكى . . آمل أن تصل إلى سمعك صيحة فزعى . وألاّ تصم أذنيك عنها ... أناشدك حمايتى ... أرجوك ... ساعدنى فى التخلص من كابوس التحقيقات ، وأقِم الدليل على أن كل ما حدث كان خطأ ... إننى أتعذب بغير أن أرتـكب ذنباً . . . أرجوك أن تصدقنى ، ولسوف يؤيد الزمن هذه الحقيقة . . . إننى لست جاسوساً ، ولست عضواً فى أية منظمة مناهضة للشيوعية ... ولـكننى مع ذلك متهم بكل هذا على أساس وشايات كاذبة . . . كما أننى لست مذنباً ، ولم أرتـكب أية جرائم أخرى ضد الحزب والحـكومة . إننى بلشفى قديم ، مبرأ من كل ريبة . ولقد كافحت بأمانة لأكثر من ٤٠ عاماً فى صفوف الحزب من أجل رخاء الشعب وسعادته . . . إننى أبلغ اليوم الثانية والستين من العمر . . ومع ذلك يهددنى قضاة التحقيق بالالتجاء إلى استخدام وسائل أشد قسوة وعنفاً وتحقيراً من وسائل التعذيب البدنى ... إنهم (أى قضاة التحقيق)

لم يعودوا قادرين على إدراك خطئهم ، وقسوة ما يتخذونه من إجراءات مخالفة للقانون . . . إنهم يحاولون تبرير أعمالهم عن طريق الزعم بأننى عدو صلب المراس ... ، وهم يطالبون باستعمال إكراه بدنى أكثر عنفاً معى ... أرجو أن تبلغ الحزب أننى برىء ، وأنه ليس هناك أية قوة تستطيع أن تجعل من الإبن المخلص عدواً له ... لن يحدث ذلك ما دام فى جسمى عرق ينبض ! ... ولكننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً للخروج من هذا المأزق ... كما أنه ليس فى استطاعتى أن أصد عن نفسى الضربات القوية الجديدة التى توشك أن تنهال علىّ ... ومهما يكن من أمر ، فإن لكل شىء حدوداً ... ولقد بلغ تعذيبى أقصى مداه ؛ فانهارت صحتى وانهدت قواى ، وتضاءل نشاطى ... إن النهاية وشيكة ... وهل هناك ما هو أفظع من الموت فى سجن سوفييتى مدموغاً بطابع خيانة الوطن بالنسبة لرجل برىء؟ يا له من أمر شديد البشاعة ! إن المرارة والألم اللذين لا يطاقان يعصران قلبى عصراً ... كلا ! كلا ! لن يحدث ذلك ... إننى أبكى ... فلا الحزب ، ولا الحكومة السوفييتية ولا قوميسيير الشعب ل . ب . بيريا يمكن أن يسمحوا بهذا الظلم القاسى الذى لا يمكن تقويمه ! . . إننى واثق تماماً من أنه إذ جرى معى تحقيق هادىء له هدف ، بغير تعذيب أو ضرب أو غضب ، فسوف يصبح من الميسور البرهنة على وضاعة الإتهامات

الموجهة إلى . . إننى أؤمن تماماً بأن الحقيقة والعدالة سوف تنتصران . . .
أومن بذلك ... أومن بذلك . »

ولقد ثبت للمحكمة العسكرية التى درست القضية أن الرفيق كيدروف الشيوعى القديم برىء ، ولـكنه أعدم رمياً بالرصاص ، رغم ذلك ، بناء على أمر بيريا ! !

كذلك عامل بيريا عائلة الرفيق أورد زهوفيـكيدز بقسوة ... لماذا ؟ لأن أورد زهوفيكيدز حاول أن يمنع بيريا من تنفيذ خططه الشائنة . وهكذا كان بيريا يزيح من طريقه جميع الأشخاص الذين حاولوا إختلاج شأنه ... ولقد كان أورد زهوفيكيدز أحد خصوم بيريا الأشداء ، وكان ستالين يعرف ذلك ، ولـكنه لم يفحص الموضوع أو يتخذ فيه الإجراءات المناسبة ، و إنما سمح بالقضاء على شقيق أورد زهوفيكيدز كما اضطهد أورد زهونيـكيدز اضطهاداً مريعاً دفعه إلى إطلاق الرصاص على نفسه ! وهكذا كان شأن بيريا دائماً ...

ومن حسن الطالع أن اللجنة المركزية للحزب كشفت القناع عن بيريا بعد موت ستالين بوقت قصير ، وتأكدت من صدق الاتهامات التى وجهت إليه ، فأعدم رمياً بالرصاص .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : لماذا لم يكشف النقاب عن بيريا إبان حياة

ستالين ، مع أنه أباد آلافاً من رجال الحزب العاملين ؟ . . . الواقع أن النقاب لم يكشف عنه قبل ذلك ، لأنه كان يستغل ضعف ستالين بمهارة شديدة . . . فقد كان يغذيه بالشكوك ، ويساعده على تحقيق مآربه ، ومن ثم كان ستالين يحتضنه ويزوده بالوحى دائماً !

أيها الرفاق :

لقد أصبح تقديس الفرد على هذا القدر العظيم من الانتشار ، لأن ستالين نفسه، كان يحب تقديس شخصه ويسعى إلى ذلك بشتى الوسائل . ولدينا حقائق كثيرة تؤيد ذلك ، أذكر منها على سبيل المثال الطبعة الخاصة « بترجمة حياته » التى نشرت فى عام ١٩٤٨ :

فهذا الكتاب يعتبر تعبيراً « صارخاً » عن أقصى درجات التملق ، ورفع أحد الأفراد إلى مرتبة التقديس . فهو « حكيم معصوم من الخطأ » و « أعظم زعيم » و « الاستراتيجى العبقرى لجميع الأوقات وجميع الشعوب » . . . ولا شك انه لا يوجد من الكلمات ما هو أكثر تعبيراً من هذه الكلمات لرفع ستالين إلى عنان السماء !

ولسنا بحاجة الى أن نذكر هنا أمثلة على ، شُحِن به هذا الكتاب من تملق كريه ، فكل ما نحتاج إليه هو أن نقول إن جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب من مداهنات ، كان يوحى به ستالين نفسه ، كما

أضيف بعضه بخط يده فى مسودة الـكتاب ! ...

والآن دعونا نتساءل : ما الذى كان ستالين يعتبر ابرازه فى هذا الـكتاب أمراً ضرورياً ؟ هل كان يريد أن يهدىء من حرارة متملقيه الذين كانوا يكتبون (ترجمة قصيرة لحياته) ؟ .. كلا ! فقد حدد المواضع التى اعتبر أن امتداح خدماته فيها لم يكن فيها كافياً !

واليـكم بعض امثلة على الخصائص التى جلعها ستالين على نفسه بخط يده :

« فى هذه المعركة ضد المتشائمين والمتخاذلين أمثال أنصار تروتسكى وزينوفييف وبوخارين وكامينييف ؛ اتحدت صفوة الحزب ... * تلك الصفوة التى حملت راية لينين العظيمة ووحدت صفوف الحزب لتأييد مبادءى لينين ، وقادت الشعب السوفييتى إلى الطريق الواسع لتصنيع البلاد وصبغ الاقتصاد الريفى بالصبغة الجماعية ... وكان زعيم هذه الصفوة والقوة الموجهة للحزب والدولة هو الرفيق ستالين . »

هكذا كتب ستالين عن نفسه أضاف :

---

* جاء فى الجزء الذى حذفناه من هذا الكلام المقتطف من كتاب « ترجمة قصيرة » تعلم جوزيف ستالين (طبعة موسكو ، دار نشر اللغات الاجنبية عام ١٩٤٩ ص ٨٩) ان هذه الصفوة كانت تتكون من ستالين ومولوتوف وكالينين وفوروشيكوف وكوييشيف وفرونز ودزرشيفسـكى وكاجانوفتش وأورجونيكيدز وكيروف وياروسلافسكى وميكويان وأندرييف وشفرنيك وزادانوف وسيربيانوف وآخرين .

« وعلى الرغم من أن ستالين يؤدى مهمته كزعيم للحزب والشعب بحذق لا يُبارى ، و بتأييد لا تحفظ فيه من الشعب السوفييتى كله ، فإن ستالين لم يسمح أبداً لأقل بادرة من الغرور أو الزهو أو تملق الذات بالتسلل الى نفسه »

متى وأين سمح قائد من قادة الشعوب لنفسه بأن يمتدح شخصه على هذا النحو ؟ وهل يليق أن يأتى مثل هذا العمل زعيم من الطراز الماركسى — اللينينى ؟

والآن دعونى أتلو عليكم عن مسودة الكتاب الجملة التالية : « أن ستالين هو لينين اليوم » . ولكن هذه الجملة بدت قصيرة جداً فى نظر ستالين ، ومن ثم استبدل بها بخط يده العبارة التالية « ان ستالين هو اصلح متمم لعمل لينين او ، كما يقال فى حزبنا ، ان ستالين هو لينين اليوم » — وهكذا ترون كيف كان ستالين — لا الشعب — هو الذى يمجد شخصه !!

واستطيع ان اذكر لكم مزيداً من العبارات الحافله بامتداح الذات ، كما كتبها ستالين بخط يده فى مسودة هذا الكتاب ... وفى الحق أن الرجل اسرف فى مديح نفسه وخاصة فى حديثه عن عبقريته العسكرية ومواهبه الاستراتيجية ..

وسأذكر هنا فقرة واحدة كتبها ستالين عن عبقريته العسكرية ...

قال : « أحرز عِلم الحرب السوفييتى الحديث مزيداً من التطور على يدى الرفيق ستالين . فقد توسع الرفيق ستالين فى نظرية العوامل الدائمة المؤدية الى تقرير مصير الحروب ؛ والدفاع الدائب النشاط وقواعد الهجوم المضاد ، وتعاون جميع الخدمات والأسلحة فى الحرب الحديثة ... كذلك حذق الرفيق ستالين الدور الذى تلعبه جموع الدبابات الكبيرة والقوات الجوية فى هذه الحرب ... كما أجاد فهم الدور الذى تلعبه المدفعية باعتبارها اكثر الاسلحة إشاعة للفزع ... كذلك كانت عبقرية ستالين ، فى مختلف مراحل الحرب تعثر على الحلول الصحيحة لجميع المشاكل الحربية فى شتى الظروف والمناسبات » .

ثم أضاف ستالين :

« ... ولقد ظهر تفوق ستالين العسكرى فى الدفاع والهجوم على السواء ... وكانت عبقريته تساعده على التكهن بخطط العدو ، ومن ثم كنا نهزمه ونعتبر المعارك التى وجه الرفيق ستالين الجيوش السوفييتية فيها ، أمثلةً باهرةً على مهارته العسكرية فى ادارة العمليات » .

بهذه الطريقة ، كُتب تاريخ حياة ستالين ووُصف الدور الذى لعبه فى الحرب ؛ فمن الذى فعل ذلك ؟ أنه ستالين نفسه لا باعتباره استراتيجياً ، ولكن باعتباره مؤلفاً ومحرراً !!

تلك هى الحقائق أيها الرفاق ... وانه ليجدر بنا ان نقول انها حقائق مخزية !

وثمت حقيقة أخرى تتعلق بكتاب « ترجمة قصيرة لحياة ستالين » ... هى ماذكر عن « البرنامج الموجز لتاريخ الحزب الشيوعى (البولشفيك) » الذى وضعته صفوة من أعضاء لجنة الحزب المركزية .

فقد غلبت على هذا الكتاب فى هذا الصدد أيضاً روح تقديس الفرد ... فقد جاء فى المسودة الاولى للكتاب :

« اعدت صفوة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البولشفيك) ، بتوجيه الرفيق ستالين و باشتراكه الشخصى النشط ، كتاب « البرنامج الموجز لتاريخ الحزب الشيوعى (البولشفيك) » .

ولكن هذه العبارة لم تعجب ستالين ، ومن ثم استبدل بها العبارة التالية :

« فى عام ١٩٣٨ صدر كتاب [تاريخ الحزب الشيوعى الموحد (البولشفيك) ، منهاج موجز] كتبه الرفيق ستيالين ووافقت عليه صفوة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البولشفيك) » ... فهل يستطيع أحد ان يضيف شيئاً اكثر من ذلك ؟

وهكذا — كما ترون — أضاف ستالين عباره قصيرة جعلت من العمل

الذى قام به صفوة أعضاء اللجنة المركزية كتاباً ألّفه ستالين ! .. ولست احسبنى فى حاجة إلى ان أوضح كيف حدث ذلك !!

إن سؤالاً ملحاً يدور بخلدنا ، وذلك هو : إذا كان ستالين هو مؤلف هذا الكتاب ، فما حاجته إلى إمتداح شخص ستالين مديحاً يُغير معالم الفترة التى اعقبت شهر أكتوبر والتى تُعتبر فترةً تاريخيةً هامةً لحزبنا الشيوعى المجيد ، بطريقة تجعل كل أمجاد هذه الفترة من صنيع « عبقرية ستالين » ؟

ومن ناحية أخرى ، هل وضح هذا الكتاب حقيقة المجهود الذى بذلها الحزب فى سبيل تدعيم البناء الإشتراكى ، وفى سبيل إقامة المجتمع الإشتراكى ؟ وهل وضّح الخطوات الأخرى التى اتخذها الحزب للسير بلا إنحراف فى الطريق الذى حدّده لينين ؟ . . . لا . . لم يتحدث الكتاب عن شىء من هذا القبيل ، وإنما يتحدث عن ستالين وحده . . . تحدث عن خطبه وتقاريره . . . وهكذا ارتبط كل شىء فى تاريخ البلاد باسم ستالين شخصياً ! وعندما يؤكد ستالين نفسه أنه هو الذى كتب « البرنامج الموجز لتاريخ الحزب الشيوعى (البولشفيك) » ، فإن قوله هذا يثير الدهشة على الأقل ! إذ كيف يسمح شخص يؤمن بمبادىء ماركس ولينين لنفسه أن يكتب عن نفسه على هذا النحو ، وكيف يمتدح شخصه هذا الإمتداح الذى يعلو به إلى عنان السماء ؟

والآن دعونا نتحدث عن « جوائز ستالين » ! . . . إن القياصرة أنفسهم لم ينشئوا جوائز تحمل أسماءهم !

ومع ذلك ، ماهى الأعمال الأدبية أو الفنية التى فازت بتلك الجوائز ؟ . . لقد فازا بإحدى الجوائز نشيد إعتبره ستالين « أحسن نشيد وطنى للاتحاد السوفييتى » . . فهل كان هذ النشيد يشمل على أية إشارة إلى الحزب ؟ ... لا ... لقد أعجب النشيد ستالين لأنه إشتمل على المديح التالى لشخصه .

« لقد ربّانا ستالين على الاخلاص للشعب »

« وكان مصدر الوحى لنا فى أعمالنا العظيمة ! »

وواضح أن هذين السطرين من النشيد ينسبان النشاط التعليمى والتوجيهى والايحائى الذى يقوم به حزبنا العظيم ، إلى ستالين وحده ... وهذا بالطبع انحراف ملموس عن الماركسية — اللينينية ، بل إنه تحقير وتهوين من شأن الدور الذى يلعبه الحزب . وأعتقد أنه يجدر بى أن أذكر لكم أن اللجنة المركزية أصدرت قراراً يقضي بتأليف صيغة جديدة للنشيد الوطنى توضح الدور الذى يلعبه الشعب والحزب .

ثم ، ألم يطلق اسم ستالين على أضخم المشروعات والمدن ، بوحى من ستالين ؟ . . ألم يكن ستالين يعرف أن تماثيل « ستالين » قد أقيمت

فى البلاد كلها « لتخليد ذكراه » وهو حى ! . . . بل إن ستالين نفسه هو الذى وقع القرار الذى أصدوه مجلس اتحاد الجمهوريات السوفييتيه الشعبية بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٩٥١ ، ذلك القرار الذى يقضى باقامة تمثال ضخم لستالين على قناة نهر الفولجا ! كذلك أصدر بتاريخ ٤ سبتمبر من نفس العام أمراً بتوفير ٣٣ طناً من النحاس لانشاء تمثاله الضخم ! . . . ولا شك أن كل من زار منطقة ستالينجراد قد رأى هذ التمثال الضخم الذى بُنى هناك فى مكان قلما يتردد الشعب عليه ! ! وهكذا أنفقت مبالغ ضخمة لإقامة هذا التمثال فى وقت يقيم فيه سكان هذه المنطقة فى أكواخ منذ إنتهاء الحرب . . . فكروا بانفسكم ؛ هل كان ستالين على حق عندما دوّن فى ترجمة حياته « انه لم يسمح بأن تساور نفسه بادرة من الغرور أو الزهو أو عبارة الذات » ؟

بل دعونى أقول لكم أن ستالين حينما كان يمجد نفسه برهن فى الوقت ذاته على عدم احترامه لذكرى لينين . فليس من قبيل المصادفات الآ ينفذ القرار الذى أتخذ منذ أكثر من ثلاثين عاماً مضت ببناء قصر للسوفييت وتمثال لفلاديمير لينين . . . فان هذا القصر لم يُشيد ، وكان بناؤه يُرجأ المرة تلو المرة ، إلى أن وضع أخيراً على الرف ! !

كذلك لا يفوتنى أن أعيد إلى ذاكرتكم القرار الذى أصدرته الحكومة السوفييتيه فى ١٤ أغسطس ١٩٢٥ بشأن « إنشاء جوائز لينين

للأعمال التعليمية » . فقد نشر هذا القرار فى الصحف وانتهى الأمر عند هذا الحد . . . فحتى يومنا هذا لم يُنفذ هذا القرار . . . ولا شك أن هذا الأمر يحتاج إلى تصحيح !

وعدا ذلك ، فإن ستالين استطاع بفضل وسائله التى أشرت إليها من قبل — وأقول ذلك إستناداً إلى الحقائق والوثائق الثابتة — ان يعيد كتابة تاريخ الثورة الاشتراكية بطريقة توحى بأن لينين لم يلعب سوى دور ثانوى فى هذه الثورة . . . كذلك جعلت الأفلام والكتب الأدبية بمعلومات لا تعطى عن لينين صورة صحيحة و إنما تُشَوّه أمجاده بطريقة لا تغتفر . .

وكان ستالين معجباً جداً بفيلم « سنة ١٩١٩ التى لا تنسى » الذى صوره واقفاً فوق سلم قطار مسلح حاملاً حساماً يقاتل به العدو ! ! . . . وفى استطاعة صديقنا العزيز « كلمنت بفريموفتش » أن يكتب لكم عن حقيقة الدور الذى لعبه ستالين ، لأنه يعرف كيف كان ستالين يقاتل ! . . وانى لأعتقد أن الرفيق فوروشيلوف يستطيع أن يفعل ذلك أيضاً لو أنه وجد من الوقت ما يسمح له بذلك . . . وليته يفعل ، فإن ذلك سوف يكون عملاً مشكوراً يذكره له الشعب والحزب . بل ان أحفاده سوف يشكرونه على ذلك ، لو أنه فعل !

ذلك ان أحداث ثورة اكتوبر والحرب الأهلية ، كانت تروى

دائماً — أثناء حياة ستالين — بطريقة توحى بانه هو الذى كان يلعب دائماً الدور الرئيسى ، وكأنى بستالين كان هو الذى يقترح على لينين فى كل مكان وفى كل زمان الأعمال التى ينبغى عليه أن يحققها ووسيلة تحقيقها ... ولا شك أن مثل هذا الزعم العريض ينطوى على افتراء على لينين .

ومن المحتمل ألاّ أكون متجنياً على الحقيقة إذا قلت أن ٩٩ ٪ من الحاضرين هنا لم يكونوا قد سمعوا وعرفوا الشىء الكثير عن ستالين قبل سنة ١٩٢٤ ، مع أن « لينين » كان فى ذلك الحين ملء الاسماع والأبصار . . . فقد كان معروفاً للحزب كله ، وللشعب كله ، أطفالاً وشيباً وشباناً !

كل هذا التشويه للتاريخ ينبغى أن يعاد النظر فيه بعناية حتى يتسنى بذلك أن يوضح التاريخ والأدب والفنون الجميلة بدقة الدور الذى لعبه ف . ا لينين والأعمال العظيمة التى نفذها حزبنا والشعب السوفييتى جميعه . . . هذا الشعب الحاذق المبتكر .

* * *

أيها الرفاق :

لقد نجم عن تقديس الفرد الأخذ بمبادىء خاطئة داخل الحزب وفى المجال الاقتصادى ؛ فما أدى إلى خرق مبادىء الحزب الحقيقية ،

والديمقراطية السوفييتية خرقاً « خطيراً » ترتب عليه فساد الإدارة ، ونشوء انحرافات خطيرة مثل إخفاء النقائص وتزييف الحقائق . . . وهكذا عاش بين ظهرانينا كثير من المداهنين والإخصائيين فى الخداع وإشاعة التفاؤل الكاذب !

ويجب علينا ألاّ ننسى أيضاً أن موجة الاعتقالات الواسعة النطاق التى شملت كثيراً من رجال الحزب وزعماء السوفييت والاقتصاديين ، قد ثبّطت همم العاملين ، ودفعت بهم إلى التردد والمغالاة فى الحذر والخوف من كل تطور جديد ، بل لقد صار الأعضاء العاملون يخشون ظلهم ، ومن ثم فتر حماسهم وتضاءل كفاحهم .

فمثلاً أصبحت قرارات الحزب ومجالس السوفييت ، تُعدّ بطريقة روتينية ، بغير اعتبار لحقيقة الموقف ودقته ... ويصدق هذا القول أيضاً على رجال الحزب العاملين . . فقد كانوا يقرءون خطبهم بطريقة روتينية أيضا ، الأمر الذى أدى إلى دمغ الحزب بالجمود ، وصبغ الجهاز الحكومى وأعمال مجالس السوفييت بالصبغة البيروقراطية .

ويكفى لتصوير مدى عزوف ستالين عن النظر إلى حقائق الحياة بعين الاعتبار ، وعدم رغبته فى الوقوف على حقيقة الحياة فى الأقاليم والمقاطعات ، أن نعرف وسيلته فى إدارة النظام الزراعى ... فعلى الرغم

من أن جميع أولئك الذين كانوا يهتمون ولو بقدر ضئيل بحقيقة الموقف الزراعى ، قد أدركوا مدى دقة ذلك الموقف ، فإن ستالين لم يهتم بالحقيقة على الإطلاق ... وأحسبكم تريدون أن تعرفوا هل كنا قد أوضحنا له الحقيقة ... نعم ، كنا نوضح له الحقيقة ، ولكنه لم يكن يأخذ كلامنا مأخذ الجد ... لماذا ؟ لأن ستالين لم يسافر إلى اى مكان على الإطلاق ، ولم يقابل عمال المزارع لا فى الريف ولا فى المدن ، كما أنه لم يكن يعرف حقيقة الموقف فى الأقاليم ...

فقد كان يعرف الريف والزراعة من الأفلام فقط . وفاته ان هذه الأفلام كانت تضفى ثوباً من الجمال البرّاق على الموقف الزراعى ... ذلك أن معظم الأفلام كانت تصور حياة عمال المزارع بطريقة جعلت الموائد تميل من ثقل ما حملت من ديكة رومية وأوز ... ولا شك أن ستالين كان يؤمن بأن هذه الصور تمثل الحقيقة !

أما فلاديمير اليش لينين ، فكان ينظر إلى الحياة من زاوية أخرى . كان ملتصقاً دائماً بالشعب ، كما كان يستقبل دائماً مندوبى الفلاحين ، وكثيراً ما كان يتحدث فى اجتماعات عمال المصانع ؛ كما كان يحرص على أن يزور القرى ويتحدث إلى الفلاحين أنفسهم .

أما ستالين ، فقد عزل نفسه عن الشعب ، ولم يذهب إلى أى مكان على الإطلاق ، واستمرت الحال على ذلك المنوال عشرات الأعوام ...

وكانت آخر مرة زار ستالين فيهــا إحدى القرى فى يناير عام ١٩٢٨ ، عند ما زار سيبريا لأمور تتعلق بتوريد القمح . . . فــكيف كان يمكنه والحالة هذه أن يعرف حقيقة الموقف فى الأقاليم ؟ . .

بل دعونى أذكر لــكم أنه عند ما قيل له أثناء احدى المناقشات ان موقفنا الزراعى كان عسيراً وأن مستوى تناسل الماشية و إنتاج اللحم كان منخفضاً ، شُــكّلت لجنة عهد إليها باعداد برنامج أطلق عليه اسم « الوسائل المؤدية إلى تحسن انتاج المعيشة فى المزارع التعاونية والمزارع الجماعية » ... و بدأنا ننفذ هذا البرنامج . ولا شك أنــكم تدركون بالطبع أن اقتراحاتنا فى ذلك الحين لم تــكن كاملة « شاملة » ، ولــكننا — رغم ذلك — رسمنا الطريق التى يمكن بوساطتها رفع نسبة إنتاج الماشية فى المزارع التعاونية والجماعية ، فاقترحنا رفع أسعار مثل هذه المنتجات لخلق دافع مادى يحفز عمال هذه المزارع إلى الإنتاج ، ولــكن مقترحاتنا لم تقبل ... وما أن حلّ شهر فبراير عام ١٩٥٣ حتى أغفلت هذه المقترحات إغفالاً تاماً .

بل دعونى أذكر لــكم حقيقه أخرى ... هى أن ستالين اقترح أثناء دراسة ذلك المشروع ، رفع نسبة الضرائب التى تدفعها المزارع التعاونية وعمالها بما يعادل ٤٠ ألف مليون رو بل . . . ذلك ان ستالين كان يعتقد أن الفلاحين كانوا ميسورى الحال وان العامل الزراعى لن يحتاج إلى اكثر

من مجرد بيع دجاجة واحدة أخرى لدفع هذه الضريبة بالكامل ! !

تصوروا معنى هذا ... انكم تعرفون بلا شك ان اربعين الف مليون روبل مبلغ لا يستطيع عمال المزارع التعاونية ان يجمعوه حتى ولو باعوا جميع محاصيلهم للحكومة ! ففى عام ١٩٥٢ مثلاً ، لم يحصل عمال هذه المزارع نفسها إلاّ مبلغ ٢٦ ألف مليون ومائتين وثمانين روبيل كثمن لجميع المحاصيل التى باعوها للحكومة . . . فهل كان الاقتراح الذى تقدم به ستالين يوحى بأنه يعرف شيئاً عن عمال هذه المزارع ؟ ... لا ...

نعم ، لم يكن ستالين يعرف حقيقة الموقف لأن الحقائق والأرقام لم تكن تعنيه . . . وإنما كان كل ما يعنيه هو أن يؤخذ كلامه قضية مسلماً بها ، وأن يعتبر رأيه سليما دائماً .. ألم يكن « عبقرياً » ؟ .. و « العبقرى » لا يحتاج إلى معرفة الحقائق ، لأنه يستطيع بمجرد إلقاء نظرة على اى شىء ان يعرف كل شىء عنه . . . ولأن أى رأى يبديه يجب أن يكون سليما وان يردده كل شخص وان يُعجب بحكمته كل إنسان !

ولكن مامدى الحكمة التى كانت تختفى وراء اقتراح بزيادة الضريبة الزراعية بمقدار ٤٠ ألف مليون روبل ؟ لا شىء ... لا شىء على الإطلاق لان الاقتراح لم يقم على تقدير فعلى للموقف ، وإنما كان مستنداً إلى أفكار خاطئة دارت برأس شخص بعيد كل البعد عن معرفة الحقيقة ... أما الآن ، فإننا قد بدأنا نشق طريقنا ببطء ، ولكن بمثابرة ، لنجد لنا

مخرجاً من موقفنا الزراعى الشاق . ولقد سرتنا خطب المندو بين التى ألقيت فى المؤتمر العشرين ... سررنا جميعاً لأن مندو بين كثيرين ألقوا خطباً ، ولأن شروطاً معينة قد وضعت لضمان تنفيذ المشروع السادس للسنوات الخمس لتناسل الماشية ، لا فى غضون خمس سنوات وإنما خلال عامين أو ثلاثة أعوام ؛ ونحن واثقون من أن التعهدات التى قُطعت بشأن مشروع السنوات الخمس ستنفذ بنجاح .

إذا كنا ننتقد اليوم بشدة فكرة تقديس الفرد التى كانت سائدة على نطاق واسع إبّان حياة ستالين ، وإذا كنا نتحدث عن الظواهر السلبية العديدة التى ولّدتها هذا التقديس الدخيل على الروح الماركسية — اللينينية ، فربما تساءل أشخاص مختلفون : كيف يمكن ان يكون الأمر كذلك ، لقد رأس ستالين الحزب والبلاد ٣٠ عاماً ، وحققت البلاد انتصارات كثيرة أثناء حياته . فهل يمكن أن ننكر ذلك ؟ فى رأيى ان السؤال لا يمكن أن يوجّه بهذه الطريقة إلاّ من جانب أولئك الذين اعماهم تقديس الفرد وفرض عليهم هذا التقديس فقط ، بواسطة ضرب من النوم المغناطيسى ، ولا من جانب أولئك الذين لا يفهمون روح الثورة والدولة السوفييتية ، وأولئك الذين لا يفهمون دور الحزب والشعب فى تقدم المجتمع السوفييتى فهماً يستند إلى مبادىء لينين .

لقد استطعنا تحقيق الثورة الاشتراكية بفضل جهود الطبقة العاملة

والفلاحين المعدمين و بفضل تأييد جزئى من جانب فلاحى الطبقة الوسطى.. لقد حقق الشعب الثورة الاشتراكية تحت زعامة الحزب البلشفى . وكانت أجل خدمات لينين هى أنه خلق حزباً عاملاً مكافحاً من الطبقة العاملة ، كما كان لينين مسلحاً بالفهم الماركسى لقوانين التطور الاشتراكى وحتمية انتصار طبقة العمال فى معركتها ضد الرأسمالية ... ولقد قاد لينين هنا الحزب فى أحرج أوقات الكفاح الثورى الذى قامت به جماهير الشعب ... وكان الحزب أثناء هذا القتال يدافع باستمرار عن مصالح الشعب ، فأصبح لينين زعيمه المحنك ، ومن ثم قاد الجماهير الكادحة الى القوة التى خلقت اول دولة اشتراكية فى العالم .

و إذا كان علينا أن نفكر فى هذا الموضوع بعقلية ماركسية — لينينية ، فإنه ينبغى علينا أن نقرر بغير مواربة أن الزعامة الغاشمة التى ظهرت الى عالم الوجود أبّان السنوات الأخيرة من حياة ستالين ، اصبحت عقبة كأداء فى طريق التقدم السوفييتى الإشتراكى ...

فكثيراً ما أخفق ستالين شهوراً عديدة فى علاج بعض المشكلات الهامة الغير العادية المتعلقة بحياة الحزب والدولة ، وهى مشكلات لم يكن فى الإمكان إرجاء حلّها . وكثيراً ما تعرضت علاقتنا السلمية بالشعوب الأخرى للخطر اثناء زعامة ستالين ، لماذا ؟ لأن قرارات « الفرد الواحد » يمكن بل وغالباً ما تُسبب تعقيدات كبيرة .

وقد يسألنى بعض الرفاق : أين كان أعضاء المكتب السياسى التابع للجنة المركزية ؟ لماذا لم يناهضوا تقديس الفرد فى الوقت المناسب ؟ ولماذا لا تفعلون ذلك إلاّ الآن فقط ؟

وأجيب عن ذلك بأنه يجب علينا أن نتأمل أولاً حقيقة ماثلة للعيان هى ان اعضاء المكتب السياسى استعرضوا هذه الشئون بطرق مختلفة فى أوقات مختلفة . ففى البداية ، أيّد كثيرون منهم أعمال ستالين ، لأن ستالين كان احد الماركسيين الأقوياء ، ولأن منطقه وقوته ونفوذه أثّر تأثيراً عظيماً فى قادة الحزب المجاهدين وفى عمل الحزب نفسه .

فمن المعروف ان ستالين ناضل بقوة من أجل نَصْرة مبادىء لينين على اعداء هذه المبادىء ، كما جاهد ضد الذين شقوا عصا الطاعة بعد وفاة لينين ، وبصفة خاصة فى السنوات الاولى التى أعقبت وفاته . . . وكان الحزب فى ذلك الوقت قد شرع — تطبيقاً لمبادىء لينين — فى تصنيع البلاد على نطاق واسع ، وإقامة المزارع الجماعية وتحقيق الثورة الثقافية . ولقد بلغ ستالين فى هذه المرحلة أوج قوته ، واستحوذ على عطف الشعب وتأييده له . كذلك كان الحزب فى ذلك الوقت مضطراً إلى الدخول فى معركة ضد أولئك الذين حاولوا أن يقودوا البلاد إلى طريق ينحرف عن مبادىء لينين . . . وكان عليه أيضاً أن يناضل أنصار تروتسكى وزينوفييف واليمينيين والبورجوازيين . ولم يكن ثمة مفر من هذا النضال .

ولـكن ستالين أساء استخدام سلطته بعد ذلك ، و بدأ يهاجم زعماء الحزب ورجال الحـكومة البارزين ، كما لجأ إلى الوسائل الارهابية ضد الشعب السوفييتى الأمين . ولقد أوضحت لـكم من قبل كيف اضطهد ستالين زعماء الحزب ورجال الحـكومة البـارزين أمثال كوسيور وردزتاك و إيخا و بوستيشيف وكثيرين غيرهم . . .

أما فيما يتعلق بموقفنا ، فإننى أقرر لـكم اننـا بذلنـا محاولات عدة للقضاء على الاتهامات الزائفة والمريبة التى استولت على نفس ستالين ، وأسفرت عن سقوط عدد من الضحايا الذين عصف بهم الاستبداد . . . وحسبنا ان نذكر ما حاق بالرفيق بوستيشيف بسبب معارضته لسـياسة ستالين .

فنى إحدى الخطب ، ندد ستالين بالرفيق بوستيشيف قائلاً له : « ما هى حقيقة موقفك ؟ »

فأجاب بوستيشيف بوضوح : إننى بولشفى ايها الرفيق ستالين : بلشفى.

فماذا كانت النتيجة ؟ . . لقد اعتبر هذا التأكيد اولاً دليلاً على عدم إحترام قائله لستالين ، واعتبر فيما بعد عملاً ضاراً ، ومن ثم انتهى الأمر باعدام بوستيشيف ووصمه بلا سبب بأنه « عدو الشعب »

وكثيراً ما تحدث مع نيقولاى الـكسندروفتش بولجانين عن الموقف

الذى كان قائماً وقتذاك ، ففى إحدى المناسبات اثناء سفرنا معاً بالسيارة قال لى « كان يحدث فى بعض الاحيان ان يذهب المرء إلى منزل ستالين بدعوة منه كصديق ، ولكن بعد أن يجلس مع ستالين ، لا يعرف إلى أين سيُرسل فيما بعد ... إلى منزله أم إلى السجن » .

من الواضح أن مثل هذه الأحوال خليقة بأن تجعل كل عضو فى المكتب السياسى يشعر بأنه يجتاز مرحلة عصيبة من مراحل حياته . أضف الى ذلك ان اللجنة المركزية للحزب لم تدع الى عقد اجتماعات عامة خلال السنوات الأخيرة وأن اجتماعات المكتب السياسى لم تكن تنعقد إلاّ احياناً ومن وقت لآخر . وهكذا نستطيع أن ندرك مدى الصعوبة التى كان يواجهها أى عضو من أعضاء المكتب السياسى تسول له نفسه الاعتراض على إجراء غير عادل او غير سديد ، أو يحاول الوقوف فى وجه الأخطاء الخطيرة والنقائص التى كانت تتصف بها قيادة ستالين .

ولقد أوضحت لكم من قبل كيف ان قرارات كثيرة قد اتخذت إما تلبية لرغبة شخص واحد (ستالين) ، وإما بطريقة ملتوية دون أن تدور حولها أية مناقشات جماعية . واننا لنعلم جميعاً المصير المحزن الذى لاقاه الرفيق فوزنسكى عضو المكتب السياسى الذى سقط ضحية اضطهاد ستالين له ... ذلك ان قرار طرده من عضوية المكتب السياسى لم يُناقش على الإطلاق وإنما صدر بطريقة منحرفة كما صدر القرار الخاص بطرد كازنتسونا

وروديونوف من مناصبهم على هذا النحو أيضاً .

وهكذا تدهورت أهمية المكتب السياسى التابع للجنة المركزية ، كما اختل نظامه نتيجة لإنشاء لجان مختلفة تصدع بسببها المكتب السياسى . . . واليكم ، على سبيل المثال ، قراراً أصدره المكتب السياسى فى ٣ أكتوبر ١٩٤٦ :

« اقتراح من ستالين :

١ — على لجنة المكتب السياسى للشئون الخارجية أن تعالج مستقبلا — بالإضافة إلى أعمال السياسة الخارجية — شتى المسائل الأخرى المتعلقة بالشئون المحلية ! !

٢ — على لجنة الشئون الخارجية أن تضم إلى عضويتها رئيس إدارة التخطيط الاقتصادى ، الرفيق فوزنتسكى ، وأن تطلق على نفسها اسماً جديداً ! ! .

إمضاء : ج . ستالين
سكرتير اللجنة المركزية

وهكذا انشأ ستالين عشرات اللجان التى تحمل اسماء مختلفة من أمثال « لجنة الشئون الخارجية » و « لجنة التخطيط » و « لجنة الشئون الداخلية » . . . و الخ . . . فياله من مجهود أشبه بالمجهود الذى يبذله

المقامر وهو يمسك بورق اللعب ! ! . . ولقد أسفر قيام هذه اللجان المختلفة عن خرق لمبدأ القيادة الجماعية ، لأن كثيراً من أعضاء المكتب السياسى كانوا — بسبب كثرة اللجان — لا يتمكنون من الاشتراك فى مناقشة كثير من المسائل الحيوية الهامة التى تتعلق بدولتنا .

واليكم مثلاً آخر . . . وجد الرفيق « كليمونت يفريموفتش فوروشيلوف » أحد الأعضاء القدامى بالحزب ، نفسه ذات مرة يواجه موقفاً لا يمكن تصديقه . . . فقد ظل لعدة أعوام محروماً من التمتع بحق الاشتراك فى مناقشات المكتب السياسى لأن ستالين منعه من حضور اجتماعات المكتب ، كما أمر بعدم إرسال أية وثائق رسمية إليه . وكان فوروشيلوف ، يعمد كلما علم بانعقاد جلسة من جلسات المكتب ، إلى الاتصال بستالين لسؤاله عما اذا كان يستطيع حضور الجلسة . وكان ستالين يسمح له بذلك فى بعض الاحيان ، ولكنه كان يندد به دائماً ليشعره بأنه غير راض عنه .

ولقد كان ستالين يفعل ذلك مدفوعاً بريبة متطرفة جعلته يؤمن باعتقاد سخيف هو ان فوروشيلوف كان عميلاً لبريطانيا ! ... لا تضحكوا ... إننى أعنى ما أقول . كان ستالين يعتقد انه عميل لبريطانيا ! ... ومن ثم فرض ستالين رقابة سرية خاصة على تليفون فوروشيلوف ، لكى يتمكن من الاستماع إلى كل ما يدور بين فوروشيلوف والمتحدثين معه ! . .

واليكم مثلاً آخر ، هو الرفيق اندريه اندرنيتش اندرييف » ،

عضو المكتب السياسى الذى أمر ستالين بطرده من عضوية المكتب ، بطريقة تعتبر مثلاً صارخاً من امثلة الاستبداد بالرأى .

بل دعونا نتذاكر ماحدث أثناء اجتماع اللجنة المركزية للحزب للمرة الاولى بعد انعقاد المؤتمر التاسع عشر ... لقد وقف ستالين يندد بالرفيق مولوتوف وبالرفيق ميكويان العضوين القديمين العاملين بالحزب ، ويتهمهما كذباً بارتكاب بعض الاخطاء . ولو انه قدّر لستالين ان يظل حياً بضعة شهور ، لما سمح للرفيقين مولوتوف وميكويان بإلقاء أية خطابات فى مؤتمر الحزب المنعقد الآن .

لقد كان ستالين — كما هو واضح الآن — يعتزم التخلص من الأعضاء القدامى فى المكتب السياسى . بل إنه قال أكثر من مرة انه ينبغى تغيير هؤلاء الأعضاء و إحلال أعضاء جدد محلهم .

ولا شك ، ان الاقتراح الذى تقدم به بعد إنعقاد المؤتمر التاسع عشر والذى يقضي باختيار ٢٥ شخصاً لضمهم إلى مجلس رئاسة اللجنة المركزية، كان يهدف إلى التخلص من أعضاء المكتب السياسى القدامى، و إحلال أشخاص محلهم أقل حنكة ومراناً حتى يمجدوه و يرفعوا من شأنه .

ونستطيع أن نقول ايضاً ان هذه الخطة كانت تهدف إلى التشهير باعضاء المكتب السياسى القدامى ، حتى يتسنى له بذلك أن يخفى أخطاءه الحزبية التى ندرسها الآن سوياً .

أيها الرفاق :

ان اللجنة المركزية ، رغبة منها فى الحيلولة دون وقوع أخطاء الماضى، تعلن بحزم وقوة وقوفها فى وجه تقديس الفرد . واننا لنعتقد أن ستالين قد مُجّد أكثر مما ينبغى ... ومع ذلك ، لاريب أن ستالين قدّم فى الماضى للحزب والطبقة العاملة خدمات كبيرة ، كما بذل جهداً كبيراً فى تدعيم الحركة العمالية الدولية .

وثمة حقيقة يُعزى إليها إلى حد ما تعقيد المسألة ؛ هى أن جميع ما شرحناه فى مؤتمرنا هذا حدث أثناء حياة ستالين وتحت قيادته بمحض موافقته ؛ إعتقاداً منه — إذا كان مقتنعاً بذلك — ان هذه الاجراءات كانت ضرورية للدفاع عن مصالح الطبقات العاملة ضد مؤامرات الأعداء واحتمال وقوع اعتداء من جانب المعسكر الرأسمالى . ولقد كان ينظر إلى أمور البلاد هذه النظرة بحجة الدفاع عن مصالح الطبقات العاملة والشعب الكادح وقضية الاشتراكية وحتمية انتصار الشيوعية ، حتى لا تستطيع ان تقول ان هذه الأعمال كانت تنطوى على استبداد . فقد كان ستالين يعتقد ان ما فعله هو ما كان يقتضيه صالح الحزب والطبقات العاملة والدفاع عن الانتصارات التى حققتها الثورة ... ولكن كل هذه التعلاّت الكاذبة لم تكن سوى معاذير ... وهنا تكمن المأساة .

أيها الرفاق :

كثيراً ما كان لينين يؤكد ان التواضع عنصر أساسى من عناصر شخصية البلشفى الحقيقى . بل لقد كان لينين نفسه مثلاً صادقاً للتواضع العظيم . ولسنا نستطيع ان نقول أننا كنا نسير على هدى لينين فى كل شيء ... ولكن حسبنا فى هذا الصدد ان نشير إلى أن كثيراً من المدن والمصانع والمنشئات الصناعية والمزارع التعاونية والجماعية والمعاهد الثقافية والسوفييتية كانت معروفة لنا بأسماء بعض قادة الحزب أو رجال الحكومة فى وقت كانوا لا يزالون فيه أحياء ... بل دعونى أقول اكثر من ذلك ، ان هذه المدن والمصانع والمنشآت والمعاهد كادت ان تصبح ممتلكات فردية لكثرة ما اقترنت باسماء أفراد من الحكام وأعضاء الحزب الأحياء ! ... ولقد اشترك كثير منا فى عملية إطلاق اسماء الأفراد على المدن والأحياء والمزارع ... والآن يجب علينا أن نصحح هذا الوضع .

ولكن هذا التصحيح الذى أطالب به ، يجب ان يتم فى هدوء وروية . وسوف تبحث اللجنة المركزية هذه المسألة وتدرسها دراسة مستأنية دقيقة لضمان عدم الوقوع فى أية أخطاء فى المستقبل . وانى لأتذكر كيف علم الشعب الأوكرانى باعتقال كوسيور .. هل تعرفون كيف ؟ لقد كان الشعب يقرن بين اسم محطة اذاعة كييف واسم كوسيور إذا كانت البرامج الإذاعية تبدأ دائماً بهذه العبارة « هنا .. راديو كوسيور ! » ... وفى ذات

يوم بدأ البرنامج بدون ذكر اسم « كوسيور » ، فعلم كل شخص عندئذ علم اليقين أن شيئا ماقد وقع للرفيق كوسيور ، واستنتجوا انه ربما كان معتقلاً ! ...

وهكذا ترون ، انه اذا ما بدأنا ننزع اللافتات ونغير الأسماء ، فإن الشعب قد يعتقد ان الأشخاص الذين مجّدوا باطلاق اسمائهم على هذه المدن أو المصانع او المنشئات أو المزارع ، قد لقوا نفس المصير الذى لقيه « كوسيور » ، وربما اعتقد الشعب ان هؤلاء القادة قد أعتقلوا أيضاً ! ذلك ان مدى مكانة أى قائد من قادتنا وأهميته كانتا تُقدّران بعدد المدن والمصانع والمنشئات والمزارع الجماعية والتعاونية التى تحمل اسمه ! ... ومن ثم، ألم يحن الوقت للقضاء على هذا « التملك الفردى » وأن تعلن « تأميم » هذه المصانع والمنشئات والمزارع ؟ ! ... لاتضحكوا ... إننى كما تقولون ، أعنى ما أقول لان ذلك من شأنه تدعيم قضيتنا .

إنه لمن الواجب علينا ان نبحث مسألة تقديس الفرد بحثاً جدياً . ويجب علينا الاّ نسمح بتسرب ما قلناه هنا الى خارج صفوف الحزب والى الصحف على وجه الخصوص . وهذا هو السبب فى اننا نبحث هذه الأمور فى مؤتمر سرى ... يجب علينا ان نعرف ان لـكل منا حداً لايتعداه ؛ كما يجب علينا الاّ نزوّد أعداءنا بمادة يتسلحون بها فى التشهير بنا ، ويجب أيضاً

ألاّ نغسل ملابسنا القذرة على مرأى منهم ! .. وإننى اعتقد ان مندوبى هذا المؤتمر يفهمون هذه المقترحات ويقدرونها .

* * *

أيها الرفاق :

يجب علينا ان نقضى على تقديس الفرد قضاء مبرماً لارجعه فيه . ويجب ان نصل الى الاستنتاجات الصحيحة الملائمة سواء ما كان منها متعلقاً بالمبادىء النظرية العسكرية ، أو بالإجراءات العملية .

ويجب لتحقيق هذا الغرض :

اولاً : ان نستنكر — بطريقة بولشفية — نزعة تقديس الفرد باعتبارها غريبة على مبادىء ماركس ولينين ، ولانها لاتتمشى مع المبادىء التى تحدد معالم قيادة الحزب والتقاليد الحزبية . كما يجب علينا ان نحارب بكل قوة شتى المحاولات التى قد تبذل فى المستقبل لبعث هذه النزعة بأى شكل من الاشكال .

ويتحتم علينا فى هذا الصدد ان نبذل جهوداً كبيرة تهدف الى التوسل بمبادىء ماركس ولينين فى فحص شتى الآراء الخاطئة المتعلقة بتقديس الفرد التى انتشرت انتشاراً واسعاً ، حتى لقد انعكست على تاريخنا وفلسفتنا واقتصادنا وعلومنا وآدابنا وفنوننا ، وإنه لمن المهم على وجه الخصوص ،

أن نعمد فى المستقبل القريب إلى إعداد كتاب منهجى جادٍ يعالج تاريخ حزبنا ، ويكتب بطريقة علمية ماركسية موضوعية ، وأن نُعِدّ كتاباً منهجياً آخر يعالج تاريخ المجتمع السوفييتى ، وكتاباً آخر يعالج أحداث لهاب الاهلية والحرب الوطنية الكبرى (يعنى الحرب العالمية الثانية) .

ثانياً: يجب علينا أن نمضى قدماً و بعزم وإصرار ، فى إتمام العمل الذى قامت به اللجنة المركزية للحزب فى السنوات الأخيرة ، وأن يكون عملنا متّسما بالاحترام لشتى منظماتنا الحزبية من القاع إلى القمة ، وان نأخذ بمبادىء لينين المتعلقة بقيادة الحزب ، وان نأخذ أولاً وقبل كل شىء بمبدأ القيادة الجماعية التى تقسم باحترام تقاليد الحياة الحزبية كما صورتها لوائح الحزب . كما يجب ان نأخذ بمبدأ الانتقاد والانتقاد الذاتى .

ثالثاً : يجب علينا ان نعمل على الحفاظ على مبادىء لينين الخاصة بالديمقراطية الاشتراكية السوفييتية ، والتى عبر عنها دستور الاتحاد السوفييتى ؛ وأن نقف فى وجه أى استبداد فردى يمارسه اى فرد يسىء استخدام سلطته . كذلك يجب علينا ان نصحح المظالم التى جاءت نتيجة إجراءات انطوت على خرق للشريعة السوفييتية الثورية ، وتكدست وتزايدت لفترة طويلة من الزمن بسبب ذيوع النفور السلبى لتقديس الفرد.

أيها الرفاق :

ان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى بالاتحاد السوفييتى قد عبر بقوة جديدة عن وحدة الحزب التى لا تتزعزع ، وعن تعاونه المتماسك مع اللجنة المركزية ، وعن اصراره الحازم على القيام بعبء عظيم هو إقامة البناء الشيوعى . ولاشك ان مجرد عملنا الدائب على القضاء على تقديس الفرد الغريب عن مبادىء ماركس ولينين ، وعلى القضاءعلى الآثار الثقيلة الوطأة التى ترتبت على هذا التقديس ، لينهض دليلاً على القوة المعنوية والسياسة العظيمتين لحزبنا .

و إننا لواثقون وثوقاً قاطعاً من أن حزبنا المسلح بالقرارات التاريخية التى اتخذت فى المؤتمر العشرين ، سوف يقود الشعب السوفييتى فى الطريق الذى رسمه لينين نحو انتصارات وأمجاد جديدة ...

يعيش لواء حزبنا الظافر ... لواء مبادىء لينين .

مطبعة الرســـالة

٣ شارع حمودة المقاول

عابدين — القاهرة

هذه أول ترجمة عربية وافية لنص الخطاب التاريخى الذى ألقاه نيكيتا خروشيشيف السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى فى المؤتمر العشرين للحزب. وهو الخطاب الذى يعتبر نقطة تحوّل لا فى تاريخ روسيا السوفيتية وحدها، بل فى تاريخ الشيوعيّة أيضا.

قدم الخطاب الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد الذى يُصدر دائما فى كل مايكتب عن عقيدة وايمان..



